الزَّلاَّجاتُ الفِضِّيَّة

ماري م. دودج

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

دار العلم للملايين

المكتبة العالمية

الزَّلاَّجاتُ الفِضِّيَّة

دار العلم للملايين



هذه
الرواية

❖ تحكي لنا هذه القصة عن «هانز وغريتل» ورغبتهما في الاشتراك بمسابقة البلدة للتزلّج والفوز بجائزتها القيّمة. لكنّ دون اشتراكهما فيها مصاعبَ جمّة، منها مرض والدهما، وفقرهما، وعدم امتلاكهما زلّاجتين ملائمتين للمناسبة، ومنافسة الأتراب لهما، وخصوصاً الأثرياء منهم. ومع ذلك يشتركان في المسابقة، فهل يتمكنان من الفوز بالجائزة؟ وكيف؟



ISBN 9953-9-6532-3 2.5 كتب الفتيان والفتيات
9 789953 965321 1

المكتبة العالمية

للفتيان والفتيات

الـزَّلاَّجاتُ الفِضِّيَّة

ماري م. دودج

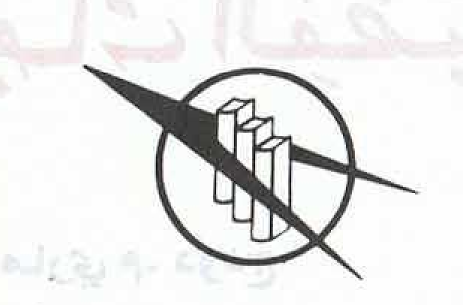
مُرفقة بمجموعة من الأسئلة المنهجية والمفيدة

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com



الطبعة الأولى

أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١

١ - هانز وغريتل

في صباحِ يومٍ مُشْرِقٍ من أيّامِ كانون الأوّل (ديسمبر) البعيدةِ كان هناكَ طفلان يجثوان على حافةِ قناةٍ متجمِّدة في هولندة. لم تكنِ الشّمسُ قَدْ بزغتْ بعدُ، ولكنَّ السّماءَ الرّماديةَ كانت قد انفرجتْ قرب الأفقِ تبشّر أطرافُها الّتي اصطبغتْ بلونٍ قرمزي، بمولدِ يومٍ جديد. وكان معظمُ الهولنديين يستمْتِعونَ بغفوةِ صباحٍ حالم، بمَنْ فيهم العجوزُ الغنيُّ مينهير خان ستوبلفوز الذي كان يغطُّ في نومٍ هانىء.

وبين الحين والآخر كانتْ فلاّحةٌ تَخْطُر وعلى رأسِها سلّةٌ ملأى، أو يمرُّ ولدٌ قويُّ البِنْيَةِ متزلّجًا على سطحِ القناةِ يشقُّ طريقَه إلى المدينة. ويلوحُ لنا طفلان، أخٌ وأختُه، وهما يُثَبِّتان شيئًا ما على أقدامِهما أشْبَهَ بزلاجتين، أو قطعتين من الخشب جرى حَفُّهما. كان الصَّبيُّ هانز هو من يقومُ بهذه المهمّة، فأمّهُ الفلاّحة الفقيرة لا تَقْوى على شراءِ زلاجتين لولديها الصّغيرين.

على الرُّغم من خشونة هاتين الزلاجتين الخشبيّتين اللتين صنعهما هانز فقد أدخلتا السّعادةَ على قلبي الطّفلين. وعندما شَعَر هانز أنّ زلاجةَ شقيقتِه الصّغيرةِ غريتل غيرُ ملائمةٍ لقدميها عَكَفَ على إصلاحِها وإعدادِها، وهو ينظرُ إليها بحنان. وسُرْعان ما راحَ الطّفلان يتزلّجان

معًا، يدًا بيد، بسعادةٍ غامرةٍ على طول القناة دون أنْ يُباليا ببرودةِ الثّلج الّذي يغمرُ الأرضَ في هولندة طوالَ الشتاء.

سَقَطَ هانز على الجليدِ وتدحرج مُنْبطحًا. ضحكتْ أختُه وصاحتْ: «يا لها من سقطةٍ رائعة!» وهرعتْ إليه مشفقةً وقالت: «هل أصابَك مكروهٌ يا هانز؟» ومدَّت له يدَها كي ينهض. وراحتْ تَجْري وقد توهّجتْ وجنتاها واتّقدتْ عيناها ببريقٍ خاطف، ولم تعدْ تَشْعُرُ بالبرد. لَحِقَ بها هانز يطارِدُها مُحاولاً الإمساكَ بها، وسرعان ما وجدتْ غريتل نَفْسَها بين ذراعي هانز الّذي صاح قائلاً:

«ها! ها! أمسكتُكِ».

رَدَّت غريتل وهي تُحاولُ الإفلاتَ من بين ذراعيه: «ها! ها! أمسكتُكَ».

في هذه اللحظةِ يُسمَع صوتٌ سريعٌ وواضحٌ ينادي: «هانز! غريتل!» قال هانز وقد بدا جديًّا لبرهة: «إنّها أمُّنا».

في ذلك الوقت كان ضوءُ الشّمسِ يَغْمُرُ القناةَ، وهواءُ الصّباحِ العليلِ يشيعُ البهجةَ، وعددُ المتزلجين يزدادُ بالتّدريج. لم يَسْتَسْلِمْ هانز وغريتل لإغراءِ المماطلةِ بالعودة إلى المنزل. كان من الصعب عليهما، وهما الطفلان المُطيعان، أنْ يتجاهلا وَالدتهما، وقاما على الفور بخلعِ زلاّجتيهما.

كان هانز في الخامسةَ عشرةَ من عمره، أشقرَ الشّعرِ، قويَّ البُنْيَة،

ذا مظهرٍ طيِّبٍ ودود يلوحُ من خلالِ نَظَراتِهِ الصّادقة، وحاجبيه اللذين تَنْبَع منهما الطِّيبة. أما غريتل فكانتْ في الثّانيةَ عشرةَ من عمرها، رشيقةً رقيقةً ذات عينين زرقاوين يشِعُّ منهما الضياء. وعندما تُطيلُ النّظر إليها تشحبُ وجنتاها وتصبحان كحزمةٍ من الأزهارِ القُرْمزية والبيضاء في مهبِّ الرّيح.

كانت والدتُهما تقفُ كالصّورةِ عند البوّابةِ، شامخةً بطولها الفارع. بدا لهما منزلُ والديهما قريبًا جدًّا رغْم أنّهما كانا لا يزالان بعيدين تَفْصِلهما عَنْه مسافةٌ تزيد على الميل. ولا عجَبَ في ذلك، ففي هذه البلاد المنبسطة يَبْدو كلُّ شيءٍ واضحًا من بعيد.

٢ ـ هولندة

تُعدُّ هولندة إحدى عجائبِ الدّنيا التّي لا بُدَّ أنْ نُطلقَ عليها اسمَ «الأرض الغريبة» أو «الأرض المغايرة»، حيثُ كلُّ شيءٍ تَراه يختلفُ عن مَثيلِهِ في الوجود. وأولُّ ما يجعلُها مختلفةً أنَّ مساحةً كبيرة من أرضها تَنخفِضُ عن سطحِ البحر، وهذا ما جَعَلَ أهلَها يُشيِّدون الحواجزَ والسّدودَ الضخمةَ، التّي كلّفَتِ الكثيرَ من الجهدِ والمال، كي تَحولَ دُوْن تسرُّبِ مياهِ المحيطِ إلى الداخل. وكانتْ بعضُ هذه الدشم أو الحواجز الخَرسانية تَنْهارُ أحيانًا أو تَـتَشقّقُ فَـتُحْدِثُ كوارثَ خطيرة. وهي عاليةٌ وعريضةٌ، قِممُ بعضِها مُغطّاةٌ بالأبْنِية والأشجار. وقد نجدُ فوقَ بعضها طرقًا عامّة. ونتلفّتُ حَوْلَنا فنجدُ في كلِّ مكانِ القنواتِ والبحيراتِ والأنهارَ ممّا يجعَلُنا نتساءَل: ما هي هولندة؟ أهي الشواطىءُ أمِ المياه؟! والحقيقة أنَّ البلادَ كُلَّها تبدو كأنّها إسفنجةٌ مشبعةٌ بالماء.

يولدُ كثيرٌ من النّاسِ ويعيشون، بل يزرعون الحدائقَ في قوارب القناة. هذه الطّبيعةُ الخاصّةُ بهولندة جعلت من البلاد جنّةً للبطّ. يا لها من سفينةٍ عائمة! وما أجملها للتجديفِ وصيد السّمكِ والسّباحة! أما في الصيْف فهي رائعة للحفاة من الفتيان والفتيات.

تبدو المدن الهولندية للوهْلَةِ الأولى غابةً مذهلةً من المنازلِ والجسورِ والكنائس والسّفن. والطّرقُ المائية فيها مألوفةٌ أكثر من الطّرقِ العاديّة وسكك الحديد. وهي ليست إلا قنواتٍ تشقُّ البلادَ في كل اتجاه. وتختلفُ هذه القنوات في أحجامِها بَدءًا من «قناة السّفن في هولندة الشمالية»، التّي تُعْتَبر من عجائبِ الدّنيا، وانتهاءً بتلك القنوات الصّغيرةِ التّي يستطيعُ طفلٌ أنْ يَثِبَ فَوْقَها. ويُطْلَقُ على الحافلات المائيّة في هولندة اسم «تريكشوتين»، وهي تَمْخُرُ تلك القنواتِ صُعودًا وهُبوطًا من أجلِ راحةِ الرُّكاب. أما العرباتُ المائيّةُ فيُطلَقُ عليها اسم «باكشيوتين»، وهي تُستخدم لنقلِ الوقود والبضائع. وبعضُ هذه الطّرقِ المائيّةِ أو القنوات من أكثرِ طرق البلاد ازدحامًا. أما الطّرقُ البرّيّةُ فمعْظَمُها مرصوفٌ بالآجرّ. وقواربُ المدينةِ لا تشبهُ أيَّ قوارب أخرى في الدّنيا. فالعربة الهولندية بساريتها الصّغيرةِ المعقوفةِ ذاتِ الشّكل المضحك هي لغزُ الألغاز.

يقولُ أحدُهم: «من الواضح هنا أنَّ السّكانَ لا يمكنُ أنْ يعطشوا!» ولكنْ مهلاً إنَّ هولندة ليست غنيّةً بمياه الشرب. وحال الهولنديين مع الماءِ كحال قصيدة «البحّار العتيق» المشهورة والّتي تقولُ:

الماءُ كثيرٌ من حولي
ولا أجدُ نقطةً للشّرب!

ولعلَّ هذه الكلماتِ تذكّرنا ببيتٍ من الشّعر العربيِّ مشابهٍ في المعنى يقولُ:

كالعيسِ في البيداءِ يَقْتُلُها الظما   والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ

وطواحينُ الهواءِ الضخمةُ المنتشرةُ في أنحاءِ البلادِ تَجْعَلُها تَبدو كأسرابٍ من طيورِ البحرِ الهائلةِ المنتشرةِ في السّماء. وثمةَ مَعلَمٌ آخرُ غريبٌ في هولندةَ وهو الـ (ديون) أو التّلة الرّملية. فهناك العديدُ من التّلال الرملية فوقَ بعضِ أجزاءِ الشّاطىء. وكانتْ هذه التّلال قبلَ أنْ تُزْرع بالأعشابِ والنباتاتِ تثيرُ زوابعَ من الغبارِ والرّمال، وحتّى الشيء المألوفُ الوحيد الّذي يمكنُ أن نصادفَه في هولندة، وهو أغنيةُ الحصادِ الشائعةُ كثيرًا هناك، فإنّه يستعصي على أيِّ لغويٍّ أنْ يفسّرَه. هنا يَنْبَغي أنْ نُغْلِقَ أعيُننا ونُصْغي إلى اللحنِ فقط.

إنَّ الغرائبَ الكثيرةَ في هولندة دليلٌ على حسنِ التّدبيرِ والدأبِ عندَ شعبها إذْ لا يوجد بقعةٌ خضراءُ أغنى أو أكثفُ بالزراعةِ في العالم من هذا البلدِ الصّغيرِ النّشيط. وهولندة بلدٌ له تاريخُه المُشْرِق وأهْلُه النّبلاء، وقدرتُه الكبيرةُ على الصّبرِ والمقاومةِ والانتصار، وتقاليدُه في الحريّة الدينيّة وغِناه بالفنِّ والموسيقى والأدب. وكانتْ تُوْصَفُ بحقٍّ بأنها «ميدان المعركة» في أوروبا، ويمكنُ أنْ تُعْتَبَرَ فِعْلاً ملجأً للمقهورين في جميع بلدان العالم، يجدونَ في رحابها الملاذَ والتّشجيع.

في كلِّ عامٍ تُنْفَق في هذه البلادِ الملايينُ من الدولاراتِ على إصلاحِ السّدودِ الحاجزةِ للماء وتنظيم مستوياتها. ذلك أنَّ إهمالَ مِثْلِ هذِهِ الواجباتِ المهمّةِ يَعْني الخراب. وكانتْ قَدْ نجمتْ في الماضي

عواقبُ وخيمةٌ جرّاء انهيارِ هذه الحواجز. فمئاتُ القُرى والمدن كانتْ تُدفَنُ تحتَ المياهِ بين حينٍ وآخر. وقضى قرابةُ مليونِ إنسانٍ نَحْبَهم بسببِ الطّوفان.

وقدْ حَدَثَ أحدُ هذهِ الفيضاناتِ المُرْعِبة الّتي لم يسبقْ لها مثيلٌ في خريفِ عام ١٥٧٠، وكان قَدْ سَبَقَه عشراتُ الفيضانات. كما عانتْ تِلك البلاد طويلاً من ظلمِ الاستعمارِ الإسباني. وعندما نقرأُ كتابَ «تاريخ نهضةِ الجمهوريةِ الهولندية» لمولتي نتعلّمُ كيفَ نُجِلُّ ذلك الشّعبَ الشّجاع الذّي تحمّل وعانى الكثير.

كانَ راف برينكر، والد غريتل وهانز، من بينِ أولئك الّذين عَملوا طويلاً في بناءِ الحواجزِ والسّدود. وكان ذلك في ظروفِ الخطرِ التّي تهدّدُ بالطّوفان، في أجواءِ عاصفةٍ وظلامٍ دامس. وكانَ الرّجالُ يَعمَلون على رأبِ الصّدعِ في نقطةٍ ضعيفةٍ من جدارِ حاجزٍ عندما سَقَطَ راف من الصقالةِ، وحُمِلَ إلى منزلِه فاقدَ الوعي. ومُنْذُ تِلْكَ السّاعةِ لم يعدْ راف يعمل. وفَقَدَ الذّاكرةَ والقُدرةَ على التّفكيرِ وإنْ ظلَّ على قيدِ الحياة.

لا تتذكّرُ غريتل عن والدِها إلاّ أنّه ذلك الرّجلُ الصّامتُ الغريبُ الّذي يتابِعُها بعينيه حَيْثُما توجّهتْ. أمّا هانز فلا يزالُ يتذكّر صورةَ ذلك الأبِ الحنون ذي الصّوتِ المُفعمِ بالبهجة، الشغوفِ بحَملِه دومًا على كتفيه، والّذي كان يُصْغي إليه مستيقظًا وهو يغنّي له.

٣ ـ الزلاجات الفضيّة

كانتِ السيّدة برينكر تستعينُ على تدبيرِ مصروفِ بيتها بزراعةِ الخضراواتِ والغَزْلِ والحياكة. كما عملتْ فترةً من الوقتِ في قاربٍ لنقلِ البضائع. بَيْدَ أنَّ عجزَ زوجِها كان يتطلّبُ مِنْها العنايةَ الدائمةَ به. فقد كان يتصرَّفُ كالأطفال، رُغْمَ أنّه كان يتمتَّعُ بقدراتٍ بدنيةٍ كبيرة. وكانتْ تشكو أحيانًا لأولادِها بمرارة وتقول إنَّ أباهم كانَ حكيمًا وعاقلاً ومُتزنًا، حتّى إنّ رئيس البلديّةِ كان يسألهُ النَّصيحة. أما الآن فيا حَسْرَتاه! إنّه لا يعرفُ زوجتَه ولا أطفالَه. وكانتْ تُخاطِبُ هانز قائلةً: «أنتَ تَذْكُر والدَك عندما كانَ في وضعِه الطّبيعي وتَذْكُر كم كان رجلاً شجاعًا، أليس كذلك؟» وكان هانز يُجيبها: «حقًّا يا أمّي، كانَ يعْرِف كلَّ شيءٍ وكان قادرًا على القيامِ بأيِّ شيء، وكنتِ تضحكين عندما كان يغنّي وتقولين إنَّ غناءَه يجعلُ طواحينَ الهواءِ تَرْقُص.

كان هانز وغريتل يُساعِدان والدتهما في معظمِ الأعمالِ المنزليّة. وفي بعضِ فصولِ السّنةِ كان الطفلان يقومانِ بجمعِ الفَحْم وأعوادِ الحطب. وفي أوقاتٍ أخرى كان هانز يكْسِبُ بعضَ النّقودِ من جَرِّ الخيولِ فيما كانتْ أُختُه تعتني بالأرزِّ في مزارعِ الجِوار. كانَ هانز ماهرًا في الحَفْرِ عَلى الخشب. كما كان هو وأُختُه ماهرين في شؤونِ

البسْتَنَة. وكانا يذهبانِ معًا إلى المدرسةِ في فصلِ الشّتاءِ فقط. وكانتْ أمُّهما تستبقيهما أحيانًا في المنزلِ لحاجتِها إلى خدماتِهما. فوالدُهما بحاجةٍ إلى رعايةٍ دائمة. وأمُّهما بحاجةٍ إلى من يعاونها في إعدادِ الخبزِ الأسودِ، وتنظيفِ المنزل، وحياكةِ الجواربِ وغيرها وبيعِها في السّوق.

فيما كان الطِّفلان منهمكين في مساعدةِ والدتِهما في ذلك الصّباحِ الباردِ من شهر كانون الأوّل/ ديسمبر جاءتْ مجموعةٌ مرحةٌ من البناتِ والصّبيان تتزلّج فوقَ القناة. وكان مِنْ بيْنهم متزلجون جيّدون، وبدوا جميعًا بملابسهم الزّاهية، عن بعد، أشبهَ بحديقةٍ من أزهارِ التوليب النّضرةِ تَطْفُو فوق سطحِ الماء. كانوا يتزلّجون فوقَ سطحِ القناة صُعودًا وهبوطًا ويستعرضون مهاراتِهم في التّسابق.

٤ ـ هانز وغريتل يجدان صديقة

عنْد الظّهيرة اندفعَ الفتيانُ والفتياتُ من مبْنى المدرسةِ نحو القناةِ لقضاءِ ساعةٍ في ممارسةِ رياضة التّزلج. ولم تمضِ بضعُ دقائقَ حتّى قالَ أحدُ المتزلّجين ساخرًا، واسمُهُ كارل شوميل، مُخاطبًا رفيقته هيلدا: «ثمةَ زوجٌ رائعٌ قادمٌ إلينا فوقَ الجليد. لا بدَّ أنَّ زلاجتيهما هديّةٌ من الملك مباشرةً». أجابته هيلدا برقّة: «إنّهما مسكينان.. إنّهما فلاحان فقيران، ألا ترى ذلك؟ ربما كانَ الصبيُّ هو من صَنَعَ الزلاجتين بنفسه».

شَعَرَ كارل بشيء من الخجل. تركتْهُ هيلدا وراحتْ تتزلّج مع رفاقِها ورفيقاتِها إلى أنْ توقّفت عِنْد غريتل، التّي كانتْ تُتابع السباقَ بشغف.

سألتْها هيلدا: «ما اسمكِ أيّتها الفتاةُ الصّغيرة؟»

أجابتِ الطّفلة: «غريتلْ يا سيّدتي. وأخي اسمه هانز».

وكان صوتُها ينمُّ عن تهيُّب بسببِ مكانةِ هيلدا الاجتماعية على الرّغم من أنهما في سنٍّ متقاربة. قالتْ هيلدا بمرح: «إنّ هانز فتى قويٌّ يُشعُّ دِفئًا. ولكنّكِ تبدين وكأنكِ تَشعُرين بالبرد. يَنبَغي أنْ ترتدي ملابسَ أكثرَ يا صغيرتي».

قالتْ غريتل، التّي لم يكنْ لديها ملابسُ أكثرُ لتلْبسَها، وهي تحاولُ أنْ تبدو ضاحكةً: «أنا لستُ صغيرةً جدًّا. لقد تجاوزتُ الثانية عشرةَ من عمري».

«آسفة. أنا في الرابعةَ عشرةَ من عمري، وأجدُ نفسي كبيرةً إلى درجةِ أنّني أجدُ الفتياتِ الأخرياتِ صغيراتٍ بالنسبةِ لي. ولعلّكِ قَدْ تُبْزّينَني جَسامَةً ولكنْ عليكِ أولاً أنْ ترتدي ملابسَ أكثرَ دِفْئًا. فالفتياتُ اللواتي يرتعشنَ من البردِ لا يكبرن أبدًا».

قالت غريتل: «أنا دافئةٌ دومًا. وأكونُ أكثرَ دفئًا عِندما أتزلّج».

شعرتْ هيلدا أنّها رُبّما تكون قَدْ قَسَت على الطّفلين قليلاً فيما هي تَودُّ أنْ تمدَّ لهما يدَ العوْن. وتابعتْ حديثَها معهما محاولةً التّخلُّص من الحرج:

«أوَدُّ أنْ أتحدّث عن السّباق الكبير فحسب. لماذا لا تنضمّان إليه؟ كِلاكما يتزلَّجُ جيّدًا. والاشتراكُ في السّباق مفتوحٌ للجميع».

أجاب هانز باحترام:

«حتّى لو كُنّا نستطيعُ الاشتراكَ في السّباقِ يا آنسة فلن نستطيعَ أن نتزلَّجَ إلاّ لفترةٍ قصيرة. فزلاجتانا من الخشبِ كما ترين. وسرعان ما تَتعرّضان للرطوبةِ وتجعلاننا نتعثّر».

قالتْ غريتل: «كلاّ لا نستطيعُ أنْ نُشارك ولكنّنا قَدْ نحضرُ يا سيّدتي لمتابعةِ ذلكَ اليوم العظيم».

أكدت هيلدا على حضورهما، وهي تَنْظر برقّة إلى وجهيْهما الجميلين، متمنّيةً لو أنّها لا تنفقُ كثيرًا مما تتقاضاه شهريًا من مصروفٍ على الزينة. ولم يتبقَّ لديها إلاّ بضعةُ دراهمَ لا تَكاد تكفي لشراءِ زوجٍ واحدٍ من الزلاجات. قالت:

«أيُّكما أفضلُ في التزلّج؟»

وأجابت غريتل بالطّريقةِ نَفْسِها: «هانز».

ابتسمتْ هيلدا وقالت: «لا أستطيعُ أنْ أشتري لكليْكما زوجًا من الزلاّجات، قرِّرا فيما بينكُما مَنْ لديه فرصةٌ أفضل ليكسبَ السّباق، وبالتّالي يَشْتَري الزلاّجتين. بودّي لو كانَ لديَّ ما يَكفي لشراءِ أفضلِ زوجٍ من الزلاّجات». وَدَّعتْهما هيلدا وهي تدسُّ النّقودَ في يدِ هانز، وأرادتْ أنْ تبتعدَ بسرعةٍ لتلحقَ بِرفاقها.

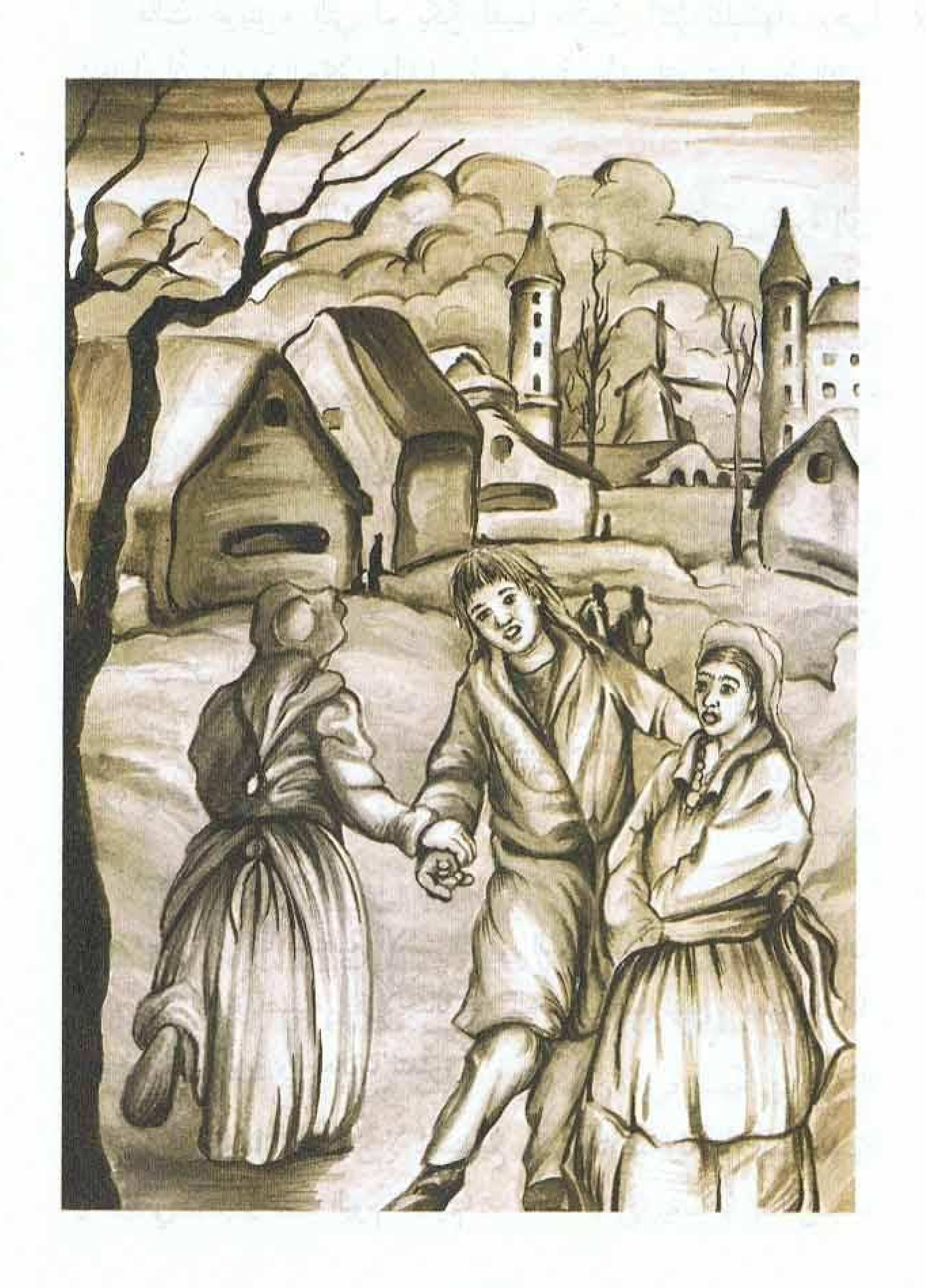
صاحَ هانز خلفَها: «لا نستطيعُ أنْ نأخذَ هذه النّقود رُغْمَ أنّنا نقدِّرُ مدى كرمكِ معنا».

سألتْ هيلدا وقد احمرَّت وَجْنَتاها: «لماذا لا تستطيعان حقًا؟»

أجابَها هانز وهو يَنْظُر إليها بعيني أميرٍ إلى ابنةِ ملك: «نحنُ لم نكسبْ هذه النّقودَ مِنْ مجهودِنا».

كانتْ هيلدا ثاقبةَ النّظرِ، ولاحظت السّلسلة الخشبيّةَ الّتي تدلّتْ من عنقِ غريتل. وقالت: «احفرْ لي يا هانز سلسلةً كَتِلْك الّتي تضعُها أخْتُك».

ـ «سأفعلُ ذلك يا سيّدتي بكلِّ مودة».



وحاول هانز أنْ يعيد لها النّقود، ولكنْ هيلدا رفضتْ بإصرارٍ مُعْتَبِرَةً أنَّ ما قدّمته لهُ من نقودٍ أقلُّ من قيمةِ العقْد.

قال هانز لأخته: «لا بدّ أنْ أعملَ بهمّة ولا أُضيعَ دقيقةً واحدة. سأسهرُ الليل من أجلِ إنجازِها بسرعةٍ، نعمْ نستطيعُ أن نحتفظَ بالنّقودِ يا غريتل!»

قالت غريتل: «يا لها من سيّدة صغيرة رائعة. أوه يا هانز ها هُوَ الحظُّ يبتسمُ لَنا أخيرًا. والآن يا هانز إذا أرسلتْنا أمُّنا غدًا إلى المدينة فإنّك تستطيعُ أنْ تشتريَ الزلّاجتين من السّوق».

هَزَّ هانز رأسَه قائلاً: «سوفَ أُنفِقُ النّقود على شراءِ الصّوف. لا بُدَّ أنْ ترتدي سِترةً تدفئك».

رفضتْ غريتل ذلك بإصرارٍ وقالتْ إنّها لا تشعرُ بالبرد. ألمْ تَقُلْ أمُّها إنَّ الدّماءَ الحارّةَ تَسْري في عروقِ الأطفال الفقراء؟ وأصرّت غريتل على أنْ يَشْتريَ أخوها الزلّاجتين.

أحسّت غريتل أنَّ أخاها يَشْعرُ بالشّفقة عليها. فقالتْ تخفّف عَنْه: «عليك أنْ تشتري الزلّاجتين لكَ وعندما أكْبَر قليلاً ستكونانِ مُناسبتين لي». كان هانز يتمنّى دَوْمًا أنْ يكونَ لديْه زوجٌ من الزلّاجات لأنّه يُحبُّ السّباق، ويتطلّعُ إلى أنْ يختبرَ قدراتِه مع الأولاد الآخرين. وكانَ واثقًا بأنَّهُ بزوجٍ من الزلّاجاتِ الفولاذيّةِ يستطيعُ أنْ يسْبِقَ معظم الأولاد في التزلُّج على القناة. نَزَلَ هانز عند رغبةِ أخْتِه.. وقرّرا الإسراعَ إلى المنزل كي يزفّا إلى أمّهما الأنباءَ الطّيبة.

٥ ـ ظلالٌ في المنزل

ما إن انتهتِ السيّدة الطيّبةُ برينكر من طعام الغَداءِ حَتّى تَزَيّنَتْ وارْتَدتْ حُلّةَ الإجازةِ تكريمًا واحتفالاً بعيدِ القدّيس نيقولا. ورأتِ السيّدةُ برينكر أنَّ هذا من شَأْنِهِ أنْ يُسْعِدَ طِفْلَيْها، وكانتْ على حق. فقد راحتْ ابنتُها الصّغيرةُ تَرْقُصَ برشاقةٍ وهي تَعْقِدُ ضفائِرَها فرِحةً مستبشرة. قالتْ غريتل:

«ما أجْمَلَكِ يا أمّي.. يا أمّي الرائعة. انظرْ يا هانز أليستْ كالصّورة؟!» قالَ هانز مبتهجًا: «تمامًا كالصّورة. تَمامًا كالصّورة».

غريتل: «ما أشدَّ بياضَ ذراعكِ يا أُمّي. إنّه أشَدُّ بياضًا مِنْ ذِراعي، لقد ضاقَ عليكِ فستانُك يا أمّي عند الصّدر. لا بُدَّ أنّكِ تكْبَرين».

ضَحِكَتِ السيّدة برينكر وقالتْ: «هذا الفُسْتان قديمٌ يا مَحْبوبتي، عندما اشتريتُه لم أكنْ بمثلِ هذا الامتلاء». وأضافَتْ وهي تتلفّتُ يَمْنَةً ويَسْرة: «ما رأيك بالقبّعة؟»

ـ «رائعةٌ يا أمّي، جميلة! انظري إنَّ والدي يتطلّعُ إليكِ!»

ـ «واحَسْرَتاه. إنّه لا يملكُ إلاّ نظرةً قاتِمة. كلاّ إنّه لا يَرى شيئًا.

هَيّا يا هانز لا تقفْ هَكذا طَوال النّهارِ تُحدّقُ بي. الزلاّجتان الجديدتانِ تَنْتَظرانِك في أمستردام».

ـ «آهِ يا أمّي. أنتِ بحاجةٍ إلى أشياءَ كثيرة. فكيفَ أشْتري الزلاّجة؟»

ـ «هُراء. النّقود أُعطيتُ لك. هَيّا اذهبْ».

قالتْ غريتل ضاحكةً: «أجلْ وعُدْ سَريعًا، سوفَ نتزلّج على القناةِ اليوم، إذا سَمحتْ لَنا أمُّنا بذلك». التفتَ هانز عِنْد عتبةِ الدّارِ إلى أمّه قائلاً: «إنَّ دولابَ الغَزْلِ لديكِ بحاجةٍ إلى دوّاسة جديدة».

ـ «تستطيع أنْ تصنَعَها أنتَ».

ـ «ولكنّكِ تحتاجين إلى صوف ودقيق و. . .»

ـ «موجودٌ موجود. إنّ نقودَكَ لا تستطيع أنْ تشتري كلَّ شيء، أليسَ كذلك؟ آه يا هانز لو أنَّ أموالَنا المسروقةَ تعودُ إلينا في هذه الليلةِ المباركةِ، فكم ستكونُ سعادتُنا! لقد دعوتُ الله البارحة».

قالَ هانز بجزعٍ: «أمّي!»

ـ «ولِمَ لا يا هانز! مِنَ العيبِ أنْ تَلومني على ذلك! أنا امرأةٌ مؤمنةٌ وليس من الخطأ أنْ أتوجّه إلى الله بالدّعاء».

ـ «وماذا دعوتِ يا أمّي؟»

ـ «دعوتُ ألاّ يَعْرِفَ اللّصوصُ النّومَ حتّى يُعيدوا المالَ إلينا، أو أن يُنيرَ لنا عقولَنا حتّى نتمكّن من استعادتِه بأنْفُسِنا. لقدْ ضاعَ المالُ في

اليومِ الّذي أصيب فيه والدُك كَما تَعْلم يا هانز». قالَ هانز مُتَمْتِمًا: «من أينَ جاءَتْ تِلك السّاعة؟»

هزّتِ السيدةُ برينكر رأسَها، ونظرتْ بحزنٍ إلى زوجها الّذي كانَ جالسًا يحدّق في الأرض.

«هَذا ما لَنْ نعرفَه يا هانز أبَدًا. لقد أريتها لوالدِك مرّات عدّة ولكنْ لم يكنْ قادرًا على تمييزها. عندما جاءَ في تِلك الليلة المخيفةِ من أجل العَشاء ناولَني الساعة وطَلَبَ مني أنْ أعْتني بها إلى أنْ يطلبَها منّي ثانيةً. وما كادَ يَفْتَح فَمَهُ كي يُكْمِلَ كلامَه حتّى جاءَ بروم كلاتربوست ليخبرَهُ أنَّ الحاجزَ الخرسانيَّ في خَطَر. وسُرْعان ما أخَذَ والدُك أدواتِهِ وخَرج. وكانتْ تِلك الأمسيةُ آخر مرّة أراهُ فيها في وعْيه. فقد أعادوه عِنْد مُنْتَصفِ الليل شِبْهَ ميتٍ ورأسُهُ مهشّمٌ ومجروح. لقد انقشعتِ الحُمّى مَعَ الوقتِ، ولكنْ لَمْ يستعدْ وعيَه، وحالتُهُ تَسوءُ يَومًا بعدَ يوم. ولَنْ نعرفَ قصّةَ هذه السّاعةِ أبدًا».

كانَ هانز قَدْ سَمِعَ هذه القصّةَ من قبل. وقد رَأى أمّهُ أكْثر مِنْ مَرّة تَهُمُّ ببيْعِها عِنْد الحاجةِ الماسّةِ ولكنّها كانتْ تتغلّبُ دوْمًا عَلى هذا الإغراء. وكانتْ تقولُ لهانز: «لَنْ نفرّط بهذِهِ السّاعةِ إلاّ إذا عَضّنا الجوع». وعَلاوةً على ذلك فإنَّ الأغنياءَ قساةُ القلوبِ على أمثالِنا الفقراء، وإذا رَأوا شَيئًا كَهذا في أيدينا فقدْ يَشكّون في والدِك».

احتقَنَتْ وجْنتا هانز غَضَبًا لَدى سماعِهِ ذلك، وقال:

- «لنْ يتجرَّأوا على قولِ شيءٍ كهذا». وتابعَ حديثَه وهو يلوِّحُ بقبضتِه: «وإذا فعَلوا. . .» ابتسمتِ السيدة برينكر باعتزاز من خلالِ دُموعِها وهي تَسْمَعُ هذا من ابنِها، وقالتْ: «أنتَ على حقٍّ أيُّها الولدُ الشجاع. لَنْ نفرِّطَ بهذِهِ السّاعة. إذ قَدْ يستفيقُ والدُك قبلَ وفاتِهِ ويسألُ عَنْها».

قال هانز مشدوهًا: «هل يمكن أن يستفيقَ؟! هل يستفيقُ ويتعرّفُ علينا؟»

- «آهِ يا ولدي مِثْلُ هذهِ الأشياءِ يُمْكن أنْ تَحْدُث».

نَسِيَ هانز في غمرةِ حديثِهِ مَع أمِّه رحْلَتَه المفترَضة إلى أمسْتِرْدام. إذْ نادرًا ما تحدّثَت إليهِ والدتُه بمثلِ هذه المودّةِ حتّى إنَّه شَعَرَ أنَّه ليسَ ابنَها فحسب بل صديقَها ومستشارَها. قالَ هانز:

«أنتِ على حقٍّ يا أمي. يَنْبَغي ألاّ نُفرِّطَ بهذه السّاعة».

وقَصّتِ الأم على ولدِها كيفَ كافحتْ هي ووالدُه طويلاً منْ أجلِ تَوْفير بعضِ المال: «هَذا المالُ الذي وفَّرْناه لوقتِ الشدّةِ أخْفاه والدك ولم يعدْ يعرفُ بالطَّبع أيْنَ أخفاه. وذاتَ مرّةٍ، وكُنا في عُسرة، صِحْتُ فيه بِأعلى صوتي: راف أينَ النّقودُ؟ هَلْ تعرِفُ أيّ شيءٍ عن النّقود؟ ولكنّني كنْتُ كمنْ يخاطبُ حَجرًا!»

- «حسنًا يا أمّي: فَلْنُحاوِلْ نِسيانَ أمرِ هَذه النّقود. أنا كبيرٌ وقويٌّ، وكذلك غريتل سريعةٌ ونشطة. سوفَ نصبح قريبًا في يسر

وسنشْهدُ أيامًا حُلوة وسعيدة. أليسَ كذلك يا غريتل؟» قالتْ غريتل باكيةً: «نعَم أمُّنا تَعرِفُ ذَلك».

ذُهِلَتِ السيّدة برينكر منْ شدّةِ عواطفِ ولديْها وكانتْ سعيدةً لحبِّهما لَها وصِدْقِهِما معها. قالتْ لابنتها: «خُذي هَذا الدّرهمَ واشتري لنفسِك به فطيرةً».

قالتْ غريتل وقَدْ ترقرقتْ عيناها بالدّموع: «دعيني أبقى مَعَكِ في المنزل، سيشْتري لي هانز الفطيرة».

التفتَتِ الأمُّ إلى ابنها وقالتْ: «هيّا يا هانز ماذا تَنْتَظر؟»

قبّلَ هانز وجنةَ أمّه وقال: «أنتِ أعظمُ أمٍّ في العالم. سأكونُ سَعيدًا إذا اشتريتُ زوجًا من الزلاّجات. إذا وجدت أنَّ نقودي تَكْفي لتجلبَ طَبيبًا من أمستردام كيْ يرى والدي فسأُحْضِرهُ لَعلَّه يستطيعُ شيْئًا».

قالتِ الأمّ: «إنَّ الطّبيب لَنْ يَحْضُرَ يا هانز ولو بضعفِ ما مَعَك من نقود. وهو لن يستطيعَ أنْ يَفْعَل شيئًا. لكَم أنفقتُ مِنَ النّقودِ على ذلك سُدًى. الله وحدَه قادرٌ على شِفائِه. اذهبِ الآن يا هانز واشترِ الزلاجتين».

انطلقَ هانز بقلبٍ مُثْقلٍ ولكنَّ الطّريقةَ الودودةَ التي تَنمُّ عن تقديرِ جعَلَته يَشْعُرُ بالسّعادةِ، وبأنَّ مهمَّته ستنجحُ لأنّها تَحْظى ببركةِ أمِّه.

٦- هانز يشقُّ طريقَه

لم تكنْ قريةُ «برويك» بشوارِعها الهادئةِ النّاصعةِ وأرصفَتِها القرميديّةِ الصّفراء، وبيوتِها الخشبيّةِ المضيئة، بعيدةً. إنّها قريةٌ تتألّقُ فيها الأناقة وجمال المنظرِ، ولكنَّ ساكنيها كانوا أشبهَ بالغافلين أو الموتى.

كان هانز ينظرُ إلى القريةِ ويتساءَلُ مُنْدهِشًا: أكانَ ما قَدْ سَمِعَهُ مِرارًا عَنْ سكّان تلكَ القريةِ صحيحًا؟ فقدْ كان يَسْمَعُ أنَّ سكان «برويك» من الغِنى بحيث يستعملون أواني المطبخِ المصنوعةِ من الذّهبِ الخالص. كانتْ تَجولُ في رَأْسِهِ خواطرُ كثيرةٌ وهو يتّجهُ بناظرَيْهِ صَوْبَ أمستردام. كانَ الجليدُ فوقَ القَناةِ مُرْتَفعًا، ولكنَّ زلاجتيه الخشبيتين، واللّتين سيتخلّصُ مِنْهما قريبًا، كانتا تُصْدِران صَريرًا مُزْعِجًا وهُوَ يتزلَّج بهما. وفيما هُوَ يَعْبرُ مُنْعطفَ (Y) إذا به يَجدُ نَفْسَه قُبالةَ الطّبيبِ المشهور بويكمان الذي يُعْتَبر من أشهرِ جرّاحِي هولندة. لم يكنْ هانز قَد التقاهُ مِنْ قَبل، ولكنّهُ عَرَفَ أنّه هو من خلالِ صُوَرِهِ التي تُنْشَر في أماكنَ كثيرة. كانَ لَهُ وجهٌ متميّزٌ، لا يمكنُ للمَرْءِ أنْ يَنْساه، بعينيهِ الزّرقاوين الثّاقبتين وشَفَتيه المضغوطتين.

قالَ هانز هامِسًا يخاطبُ نَفْسَه: «ها هُوَ أعظمُ طبيبٍ في العالم.

لقدْ أرْسَلَتْهُ العِنايةُ الإلٰهية. ولا يحقُّ لي أنْ أقتني الزلاّجتين عندما أستطيعُ بثمنهما أنْ أحصلَ على مساعدةِ جُلّى لوالدي!»

كانَ الطّبيبُ العجوز يَمْشي عابسًا. شَعَرَ هانز بغصّةٍ في حلْقِهِ تكادُ تَمْنَعُه مِن الكلام، ولكنّه وَجَدَ الشجاعةَ الكافيةَ كي يرفعَ صَوْتَهُ وهو يمرُّ بجانبه:

- «سيدي بويكمان!»

توقّفَ الرجلُ الكبيرُ ونَظَرَ إليْه عابسًا.

قالَ هانز متلهِّفًا وهو يقتربُ من الطّبيب ذي النّظرةِ القاسية: «سيّدي، أعرفُ أنّه لا يمكنُ إلاّ أنْ تكونَ الطّبيبَ الشّهيرَ بويكمان. وأوَدُّ أنْ أسألَكَ مَعْروفًا عظيمًا». هَمْهَمَ الطّبيبُ وهو يستعدُّ لتجاوز معترِضِهِ وقالَ: «ابتعد عَنْ طريقي. ليسَ معي نقود. وأنا لا أتصدّقُ على الشّحّاذين بشيء».

قالَ هانز بكبرياء: «لَسْتُ شحّاذًا يا سيّدي. أريدُ أنْ أسألَكَ مشورَتك بشأنِ والدي، إنّه حيٌّ ولكنّه يبدو وكأنّه رجلٌ ميْتٌ، إنّه لا يعي ما يقول، ولكنّه ليسَ مريضًا، لقد سَقَطَ من على السّاتِرِ الخرساني».

صاحَ الطّبيبُ وقد بَدَأَ يُصْغي إليه: «هه؟ ماذا تقول؟»

رَوى هانز الحكايةَ كلَّها بطريقةٍ غيرِ مترابطة. وكانتِ الدّموعُ تَطْفُرُ مِنْ عينيهِ أحيانًا وهو يتحدّثُ، وأنهى حكايَتَه مرة أخرى بالرّجاءِ: «أوْه أرجو أنْ تَراهُ يا سيّدي، إنَّ جَسَدَه سليمٌ، ولكنَّ عقلَه لَيْسَ كذلك،

أعرفُ أنَّ ما أمْلِكُ من نقودٍ غيرُ كافٍ، ولكنْ أرجو منك أنْ تَأخُذَها يا سيّدي. سأكونُ خادمًا لكَ يا سيّدي طَوال حياتي إذا ما قَبلتَ أنْ تُطَبِّب والدي!» رَقَّ قلبُ الطّبيب له وقال: «ضعْ نقودَكَ جانبًا يا بنيّ فلا شأنَ لي بها، سأعاين والدَك، أخْشى أن تكون حالتُه ميئوسًا منها، مُنْذُ متى قلتَ لي تعرّضَ لهذهِ الحادثة؟»

قال هانز وهو يَشرقُ بدموعه: «مُنْذُ عَشْرِ سنواتٍ يا سيّدي».

ـ «آه، إنّها حالةٌ سيئة، ولكنّني سأراه، أنا مشغولٌ طَوال هذا الأسبوع، ولكنْ لنقل الأسبوعَ القادم. أينَ يقعُ منزلُكم؟»

ـ «على بعدِ ميلٍ جنوبي برويك، يا سيّدي. عَلى مقربةٍ من القناة. إنّه كوخٌ فقير متهدّم، وأيُّ ولَدٍ في الجِوار يُمْكنه أن يدُلَّك عليه، إنّهم يُطْلِقون عليه اسمَ: كوخ الأبله».

قالَ الطّبيب وهو يحثّ الخُطى مبتعدًا: «سأكونُ هناك». وتابَعَ يُخاطبُ نَفْسَه: «إنها حالةٌ ميئوس منها، ولكنَّ الغلامَ أعْجَبني، إنّ عينيه تُشْبهان عيني المِسْكين لورين».

تابعَ هانز تَزلُّجَه متوجّهًا نحو أمستردام بزلاّجتيه الخشبيّتين. وراحَ يتحسّسُ النّقودَ في جيبه، ويصفِرُ بطريقةٍ طفوليّة. وأخَذَ يفكّرُ: هل عليَّ أنْ أُسْرِعَ إلى البيتِ حتى أزفَّ إليهما الأخبارَ الطّيبة، أمْ أنَّ عليَّ أنْ أشْتريَ الفطيرةَ والزلاّجتين أولاً؟ ها. أعْتقدُ أنَّ عليَّ أنْ أتابعَ طريقي.

وهكذا اشْترَى هانز أخيرًا الزلاّجتين.



٧ ـ جاكوب بوت وابن عمه

كانَ هانز وغريتل في غاية المرحِ عشيّةَ عيدِ القدّيس نيقولا. كانَ القمرُ بدرًا، وكانتْ أمُّهما سعيدةً بدورها لتوقُّعها زيارة السيِّد، وهذا ما جعَلَها تَستَسلِمُ لتوسّلاتِ ولديْها بالسّماحِ لهما بممارسةِ ساعةٍ من التزلّج قبلَ وقتِ النّوم.

كان هانز سعيدًا بزلّاجتيه الجديدتين وفي غاية حماستِهِ ليُظهِرَ لغريتل كيفَ يستطيعُ بهما أنْ يقومَ بعدّةِ حركاتٍ فوقَ الجليدِ على نحوٍ رائع، الأمر الذي أثارَ دهشةَ غريتل وإعجابَها.

وعِنْد القناةِ حيثُ تَجمّع عددٌ كبيرٌ من الناسِ كانَ هناك أيضًا اثنان يجرِّبان قُدُراتِهما الفائقَة على التزلّج هما فان هولبس وكارل شوميل. ومن بين أربعِ محاولاتٍ استطاع هولبس أنْ يفوزَ بثلاثٍ. وهذا ما أثارَ حَنَقَ كارل بالطبع. كان كارل متعجرفًا لا يحبُّ الآخرين، وأرادَ أنْ يُقنعَ رفاقَه بأن يَمْنَع هانز وغريتل من الاشتراكِ في السّباق مَعَهم. ولكنَّ فان هولبس اعترضَ على ذلك بشدّة وقالَ: «إنّ من العار منعَ اثنين من المتزلّجين الجيّدين لمجرّد كونهما فقيرَيْن!»

وحَدَثَ نوعٌ من المُشادّة الكلاميّة انتهتْ بانتصارِ فان هولبس

وفرضِ رأيه. وفي تِلكَ الأثناءِ اقتربَ صديقٌ لَهُ اسمهُ جاكوب بوت معروفٌ بجسامَتِه. وكان معه رفيقٌ لَهُ نحيلٌ وغريب. وكانَ هذا الفتى النحيلُ هو ابن عم جاكوب، وهو بريطانيُّ الجنسيةِ ويُدْعى بن روبس. وقال جاكوب إن ابنَ عمِّه سيَبْقى عِنْدَهُ بعضَ الوقت وإنّه سيشاركُ في سِباقِ التزلّج الكبير. شَعَرَ البريطانيُّ بن بالحرجِ أمامَ أصدقاءِ ابن عمه جاكوب. فقدْ كانَ لا يَعْرِفُ إلاّ بِضعَ كلماتٍ من اللغة الهولندية. وكانَ أصدقاءُ جاكوب بدورهِم، رُغْمَ إلمامِهم بالإنكليزية، يتحرّجون من التحدث بها أمامَ ذلكَ الفتى الإنكليزي.

عَلى أن الرغبةَ المشتركةَ في ممارسةِ مُتْعَةِ التزلّجِ جَعَلَتْهم يتجاوزون جميعَ عوائقِ اللغة. وسرعان ما شَعَرَ أنّه بين أصدقائه.

شَرَحَ بوت لأصدقائِهِ أنَّ رحلةَ التزلّج ستمتدُّ ما بينَ بلدةِ برويك الصغيرة والعاصمة لاهاي، على مسافةِ خَمْسَةَ عَشَرَ ميلاً تَقْريبًا. وعِنْدَما سألَ رفاقَه: «مَنْ مِنكم سيذهبُ معنا؟» صاحَ الأولادُ جميعًا: «أنا.. أنا!»

قال بيتر فان هولب بحماسة: «نستطيعُ أنْ نتوقّفَ في هارلم حيثُ نرى ابنَ عمّك الأرعن الضّخم، ونتوقّف في ليدن أيضًا حيثُ المناظرُ لا حدودَ لها، ونُمْضي الليلة في لاهاي حيثُ ستكونُ أختي المتزوّجة سعيدةً برؤيتنا، وفي صباح اليوم التّالي نستطيعُ أنْ ننطلقَ في رحلةِ العودة».

ووافقَ جاكوب على هٰذِهِ الخطّةِ للرحلة.

ولكنْ أينَ هانز وغريتل؟

كانا يتزلّجان قرابةَ ساعةٍ بعيدًا عن الآخرين، سعيدَين معًا. قالتْ غريتل بدهشةٍ: «آه يا هانز ما أجملَ أنْ نتزلّج معًا وأن يكون لَدى كلٍّ مِنّا زلاّجتان! لقد قلتُ لكَ: إنَّ طائرَ اللقلقِ سيجلبُ لَنا الحظ».

وفجأةً نـدّتْ صيحة. صيحةٌ خافتةٌ لم يسمعْها أحدٌ، ولكنَّ هانز عَرَفَ مَغْزاها جيّدًا. ولاحظتْ غريتل تحتَ ضوءِ القمر كيف شَحَبَ وجهُه.

صاح هانز: «إنّه أبي! لقد أخاف أمّنا!»

وشَرَعَ الاثنان يركضانِ باتجاهِ المنزلِ بأقْصَى سُرْعَة.

٨ ـ الاحتفالُ بعيدِ القدّيس نيقولا

القدّيسُ نيقولا في هولندة قدّيسٌ حقيقيٌّ، وهو غالبًا ما يَظْهَرُ بلباسِهِ الكاملِ الموشّى بالذّهبِ، وقفّازيه المُرصَّعين بالجواهر. هُنا تَأْتي سانتا كلوز مرحةً في الخامسِ والعشرين من ديسمبر صبيحةَ عيد الميلادِ المجيد. وفي هولندة يقوم القدّيس نيقولا بزياراته في صباح اليومِ الخامسِ، وهو وقتٌ ملائمٌ لَه. وفي صبيحةِ اليوم السّادسِ يقومُ بتوزيعِ الحَلْوى والألعابِ والنفائسِ ثُمَّ يَحْتَجِبُ عامًا كاملاً.

يكرِّس الهولنديون عيدَ الميلادِ للطقوسِ الكنسيّةِ والزّياراتِ العائليةِ اللطيفة. وعشيّة عيد القدّيس نيقولا يكون الشبابُ مُفْعَمين بالحبورِ والتّمنيات.

إخوةُ هيلدا فان غليك الصِّغار وأخواتُها كانوا جَميعًا في حالةٍ من السّعادةِ في تِلْك الليلة. فقد سُمِحَ لهم بدخولِ غرفةِ الاستقبال الكُبْرى، حيثُ كانوا في أزهى ملابِسِهِم، وقُدِّم لكلِّ واحدٍ مِنْهم قطعتان من الحلوى على العَشاء. كانَ الجميعُ يَشْعُرون بالمرحِ والسرور.

وَقفَ الجميعِ صبيةً وفتياتٍ يُنْشدونَ الأغاني العذْبَة احتفالاً بالعيد. ومنْ بينِ هذه الأناشيدِ الأغنيةُ التي تقول:

أهلاً بالصديق القدّيس نيقولا أهلا.
لا تُحضِر العصا الليلة
وفيما تُغَـنّي لك حناجرُنا
تُضيءُ قلوبُنا جميعًا بالنّور
أهلاً بالصديق القدّيس نيقولا، أهلا
أهلاً بك عنْد هذِهِ الفرقةِ المرحة
الأولادُ السّعداءُ يُحيُّونكَ
وأنتَ تُسْعِدُ كلَّ الأرض
اِملأْ كلَّ يدٍ وسلّةٍ فارغة
وتَكرَّمْ على الصّغار الذين يَسْألونكَ
هكذا نُنْشِدُ هكذا نُنْشِد
لأنّكَ تُحضِرُ لنا كلَّ شيء.

وانْفَتح البابُ ودَخَل القدّيسُ نيقولا بملابسِهِ الكاملة ووقَفَ أمامَهم. وسادَ الصمّتُ الكامل. وسُرْعان ما تكلَّمَ القدّيس بصوتٍ جليلٍ ورقيق، وقالَ: «أحبّكم جَميعًا يا أولادي: هيندريك، هيلل، بروم، كاتي، هيغنز لوكريتيا، وأنتمْ يا أولادَ العمومةِ: ولفرت، ديدريتش، ميكين، فوست، وكاترينا. إنّكم جَميعًا أولادٌ طيبون». وراحَ القدّيس نيقولا يُقدّم لَهمُ النّصائحَ ويعدِّدُ بعضَ مناقبِهم ومثالبِهم ويَدْعوهم إلى المحبّةِ والخير. وأخيرًا تَمنّى لَهُمْ أطيبَ الأمنيات بالعامِ الجديد، وغادَرهُمْ مُودِّعًا.

وفي وقتٍ مبكّرٍ من صباحِ اليوم التّالي فُتِحَ البابُ بحضورِ العائلة مُجْتمعة. يا للمفاجأة! لقد صَدَقَ القدّيسُ نيقولا وَعْدَه. فقد كانتِ المائدةُ مكتظّةً بأصنافِ الهدايا مِنْ حلوى وألعابٍ وحليٍّ وكُتُبٍ وأشياءَ أخرى. وكانَ لكلِّ فردٍ مِنْ أفرادِ العائلةِ هديّتُه الخاصة به. ما أطيبَ القدّيسَ نيقولا. إنّه قدّيسٌ حقيقي.

٩ ـ ماذا رأى الأولادُ في أمستردام

صاحَ بيتر بصوتٍ عالٍ، فيما الفرقةُ تتجمّعُ عند القناةِ في الصباحِ الباكر تتجهّزُ لرحلةِ التزلّج: «هَلْ نَحْنُ جميعًا هُنا؟» وراحَ يُنادي على الأسماءِ فَرْدًا فَرْدًا. كانَ الجميعُ حاضرين عَدا واحدٍ هُوَ فوستين ألبرت.

«والآنَ أيُّها الأولادُ»، ـ صاح بيترـ «إنّها السّاعةُ الثّامنةُ، والطقسُ رائعٌ. سوفَ نكونُ في أمستردام في غضونِ نصفِ ساعة. والآنَ هيّا: واحدٌ، اثنان، ثلاثة. انْطلقوا!»

وبالفعل في أقلَّ من ثلاثين دقيقةً استطاعوا أنْ يَصلوا إلى المدينةِ الّتي تُعْتَبر قلبَ هولندة، المدينةِ ذاتِ الخمسِ وتسعين جزيرةً وما يُقارب مائتي جسر. وعلى الرّغمِ من أن بن جاءَ إليها مرّتين منذ وصولِه إلى هولندة فقدْ رأى كثيرًا من الأشياءِ المُثيرة، ولكنَّ الأمرَ كان عاديًّا بالنّسبةِ لرفاقِهِ الهولنديين الّذين كانوا يَعيشون قريبًا من أمستردام طِيلةَ حَياتهم. كلُّ ما حول بن كان يُثيرُ اهتمامَه: البيوتُ الشاهقةُ ذاتُ المداخنِ المتفرّعة، والأسطحُ الهرميّةُ، والمباني العامّةُ الضّخمةُ الّتي ترتفعُ فوق تلالٍ من الغابات، والشوارعُ الضّيقةُ، والقنَواتُ الّتي تَخْترقُ المدينةَ في كلِّ مكان، والجسورُ، والملابسُ المتنوّعةُ وغيرُها وغيرها.

وَكان يُشاهِدُ أحيانًا عَرَبةً ذاتَ عجلاتٍ خشبيّةٍ يجرُّها كلب أو حمار يحْمِلُ خُرْجين على ظهرِه مَمْلوءَيْن بالأواني الفخاريّة أوِ الزّجاجيّة، أو عربةً عائليّةً تَجرّها عِدّةُ أحصنةٍ وتَتْرِكُ آثارَ عجلاتِها على الثلج.

كانتِ المدينةُ كُلُّها تَرْتَدي حلّةً احتفاليّةً قَشيبة. وكانَ كلُّ محلٍّ تجاري يَبْدو في أزْهى زينةٍ تكْريمًا لعيدِ القدّيس نيقولا. وكانَ على بيتر بوصْفِهِ قائدَ غرفةِ التزلّجِ أنْ يَأمُرَ رفاقَه بالابتعادِ عن واجهاتِ المحلات التّجاريّةِ المُغْرِيَةِ والغنيّةِ بكل أصنافِ الأشياء الجذّابة، وخاصّةً الألعاب والّتي تَشْتَهِرُ هولندة بصناعتِها.

وفيما كانَ بن يتزلّجُ معَ رفاقِهِ على طولِ القَنواتِ المُزْدحمةِ بالنّاسِ في المدينة لم يكنْ يُصدِّقُ أن هؤلاء الهولنديين الكسالى الّذين كان يَراهُمْ حَوْلَهُ، وهُمْ يدخّنون الغليون بمتعةٍ وقبّعاتُهم تكادُ تطيرُ من رؤوسِهم دُوْنَ أنْ يُبْدوا أيَّ اهتمام، كانوا قادرين على القيام بِتلْكَ الثورات الّتي جَرتْ في هولندة، وأنهم هُمْ حَقًّا أبناءُ أولئكَ الأبطالِ الشّجعانِ الّذين قَرأَ عَنْهُمْ في تاريخِ هولندة ومواطِنوهم.

قالَ جاكوب وهُوَ يُشيرُ إلى بعضِ المَباني العالية: «ها هي الزّاويةُ الّتي غَرقَتْ فيها قَبْلَ خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا مخازنُ الغلالِ الضّخمة. كانَ فيها مئاتُ الآلافِ من أطنانِ الذرة».

سَألَ كارل بحدة: «ولكنْ كيفَ عَرَفْتَ ذلك وقد كنتَ في القِماط

آنذاك؟» فأجاب جاكوب: «أبي كانَ يَعْرِفُ كلَّ شيءٍ عن ذلك».
وتابَعَ يقولُ: «إن بن يحبّ أنْ يَرى لوحات فنيةً فَدعْهُ يَرى بعضَها».

بنيامين: «حسنًا إذا كان لديْنا وقتٌ فسآخذُه إلى قاعةِ المدينة أوْ «ستادهيوس». وأرْغبُ في أن أريَهُ لوحة «فان سبيك» وهو يَحْرُقُ سفينَته، إنَّها لوحةٌ عظيمة».

وتساءَل بن عمّن يكون فان سبيك فأجابه بنيامين:

«كان في شِباك مع البلجيكيين وعندما وجد أنّهم باتوا في موقفٍ أقْوى وأنهم سوف يُمْسِكون بسفينته قامَ بتفجيرِ السفينة وآثَرَ الموت على أن يستسلمَ للعدوّ».

ـ «هل فان سبيك هو نفسُه فان ترومب؟»

ـ «لا.. فان ترومب رجلٌ شجاعٌ آخر شيّدوا لهُ تِمثالاً في «ديلفت هيفن». وهو المكان الذي انطلقَتْ منه سفينةُ الحجّاج إلى أمريكا. إنه أميرال هولندي للبحر خاضَ أكثر من ثلاثين معركةً بحريّةً. وهزمَ الأسطول الإسباني كما هَزَمَ أسطولاً بريطانيًا واستطاعَ أن يُرْغِمَه على الابتعاد».

فقاطعه بن قائلاً: «قِفْ! فالبريطانيّون تغلَّبوا عليه في النهاية. أنا أعرفُ هذه الحكاية تمامًا، لقد قُتِلَ في مكانٍ ما عِنْد الشاطىء الهولندي في اشتباكٍ مع الأسطول البريطاني انتصرَ فيه الأخير».

وهنا حاولَ لامبرت تغييرَ موضوعِ الحديث بعد أن وَجَدَ نَفْسَه مُحرَجًا.

صاح رئيس فرقة التزلّج في الجميع: «لننطلقْ إلى المتحف!»
كانت أبواب المتحفِ مفتوحةً وكان دخوله مجّانيًا في ذلك اليوم. تدافَعَ الفتيةُ للدخولِ فرحين. كان هذا المتحفُ مُتْحفًا للّوحاتِ الفنّية يضمُّ فيما يضمُّ بعض الأعمال الفنية العظيمة لكبارِ الفنانين الهولنديين فَضْلاً عن مجموعةٍ كبيرة من المنحوتات النادرة.

قالَ لامبرت مناديًا بصوتٍ مسموع: «تعالَوا يا أولاد وتمتّعوا برؤية لوحة صيد الدب». وكانت تلك اللوحةُ من الأعمال الرائعة للرسّام الهولندي بول بوت في القرن السابع عشر والّذي أبْدعَ أعمالاً ممتازةً حتّى قَبْلَ أن يبلغَ السّادسة عشرة من عمره. أُعجِب الفتيةُ باللوحة بسببِ طرافةِ مضمونِها. ولكنهم تابعوا سَيْرَهم دونَ اهتمامٍ يُذْكَر بروائع الفنّانَين رامبرانت وفان ديرهلست. إلاّ أنهم توقّفوا مشدوهين يتطلّعون بكثيرٍ من النّشوةِ إلى لوحةٍ قبيحةٍ لفنانٍ اسمه فان ديرفيه تمثّلُ معركةً بحريّةً بين الهولنديين والبريطانيين. كما لفتتِ انتباهَهُمْ لوحةُ: «وليمة القديس نيقولا».

قال بن لصديقهِ لامبرت: «انظر إلى اللوحة يا فان موينين. هل يمكن أن يكونَ ثمةَ ما هو أجْمَلُ من هذا الوجهِ الطفوليّ؟ إنّه ينظرُ كما لو أنه يَعْرِف أنه يستحقُّ الجلدَ بالسّياط ولكنّهُ يأمُل أن يعفوَ عَنْهُ

القديس نيقولا. أنا أحبُّ هذا النوعَ من الرسمِ الذي يعبِّر عن قصّةٍ ما».

قال قائدُ الفرقة: «هيّا يا أولاد. إنها العاشرةُ وقد حانَ وقتُ الانصراف». أسرَع الأولادُ باتجاهِ القناة. وأعطى بيتر الأمر بالإيعاز إلى الفتية من جديد لبدء التزلّج. كان الجميع متحمّسين يتمتعون بروح معنويّة عالية.

سأل بيتر: «هل سنتزلّجُ فوقَ القناة أم النهر؟»

أجاب كارل: «فوقَ النهر بالتأكيد. سيكونُ ذلك مُمْتِعًا بالفعل. سيكون طريق التزلّج أطولَ ولكنّه أمتع».

صاح بوت الّذي انتابَهُ اهتمامٌ مفاجىء: «أنا مع التزلّج فوقَ القناة». قال قائدُ الفرقة: «حسنًا، سنتزلّج فوقَ القناة إذا وافقتم جميعًا».

«موافقون!» قال الجميعُ بشيءٍ من الغصّة.

انطلق بيتر على رأسِ الفرقة قائلاً: «حسنًا... هيّا... سنصلُ هارلم في غضونِ ساعة!»

١٠ ـ مانياس الضخم والطرائف الصغيرة

فيما كان الفتية يتزلَّجون بأقصى سرعة كانوا يسمعون أصواتَ السيارات القادمة من أمستردام خلفهم. كانوا سعداء مستبشرين في رحلتهم. وكانوا يتوقفون أحيانًا لتبادل بضع كلمات مع الحراس الموجودين في أماكن معيّنة على طول القناة. ومهمة أولئك الحراس أن يحافظوا في الشتاء على السطح الجليدي نظيفًا وأملس وبين حين وآخر كان الأولادُ يتسلّقون برعونة القواربَ المتجمّعة في المرفأ الموسَّع خارج القناة، ولكنّ الحرّاس المتيقّظين كانوا يكشِفونَهم ويأمرونَهم بالنزول مِنها. لم يكنْ ثمةَ ما هو أكثرُ استقامة من تلك القناة التي كان الفتية يتزَلَّجون عليها، ولا ما هو أكثرُ استقامةً من صفوفِ أشجار الصفصافِ العالية الممتدّة على طولِ حافة القناة. وعلى الطرفِ المقابلِ كانت تقعُ القناة المتلألِئَةُ كالزجاج بحشود المتزلّجين عليها وقواربِها البنّيَة، وكراسيها المتحركة.

كان لودفيغ فان هولب يجدُ غرابةً فيما سيعرِفه الفتى الإنكليزي عن هولندة. وفي تقدير لامبرت أنّ هذا الفتى الإنكليزي قد عَرَفَ عن تلك البلاد أكثرَ من الهولنديين أنفسِهم. وأراد لودفيغ أن يجرَّ الفتى الإنكليزي إلى موضوعٍ يستطيع أن يتباهى بمعرفتهِ أمامَه وهو تاريخُ

زهرة «التيوليب» (الخزامى) التي اشتهرتْ بها هولندة. قال لودفيغ «إنَّ أولَ زهرةٍ من هذا النوع جاءَتْ إلى البلاد عام ١٥٦٠ وقد أتَتْ من القسطنطينية. وكانت موضعَ إعجابِ الجميع هنا حتّى إنّ الموسرين من أهالي أمستردام أرسلوا يطلبون المزيد من تركيا. ومنذ ذلك الحين أضحتْ تِلكَ الزنبقةُ بدعةً سائدة، واستمرَّ ذلك لسنوات طويلة. كانت جذور التيوليب تُستَوْرَد بأثمان باهظة. وكان أحدُ أنواع هذه الزنابق ويُدعى «سيمبر أوغوستوس» يُباع بمئاتِ الفلورينات. وراحَ الناسُ يتاجِرون بأبصالِ تِلْكَ الزهرة ويربحون أرباحًا فاحشة، حتى تحوَّلت هذه التّجارة إلى نوعٍ من المقامرة الخطرة التي جعلتْ بعضَ الناس أثرياءَ بين يوم وليلة في حين أفقدتْ آخرين كُلَّ ما يملِكون. ولم تخفضْ أسعارُ تلك الزنبقة إلا بعدَ أنْ تدخّلتِ الدولة، واكتشفَ الناسُ كم أنّهم كانوا حَمْقَى حين تَدافعوا دون وعي إلى اقتنائها».

قال بن الذي كان يُصْغي طوال الوقت باهتمام: «بالمناسبة، هل تعرف أنَّ اسمَ هذه الزنبقة جاء من كلمة تركيّة معناها العمامة؟»[1] وتابع حديثه قائلاً: «إنّ ما يدهشني حقًّا أنّكم معشرَ الهولنديين ما زلتم تهتمّون بهذه الزهرة بشكلٍ غير عاديّ».

قال لامبرت: «أنتَ على حق. إذ تَكاد لا تخلو حديقة واحدة من تِلْك الأزهار الجميلة. ولدى عمي مسكبةٌ رائعة تضمُّ تشكيلةً من أجمل أنواعِ تلك الزهرة في بيته الصيفي في الجانبِ الآخر من أمستردام».

(١) الكلمة التركية هي: Turban، وهي قبعة نسائية تشبه العمامة ـ المترجم.

وعَلّقَ بن قائلاً: «لَوْلا تِلْك الزنبقةُ (التيوليب) ورياضةُ التزلُّجِ الرائعةُ التي تمارسونها لَبَدَتْ لي بلادكم لا تختلفُ كثيرًا عن غيرها».

قال لامبِرت مُغيّرًا مَجْرى الحديث ومُبْديًا دهشته: «لكمْ تَبْدو مختلفًا جدًّا عن ابن عمك بوت! ومع هذا فأنـتُما أولادُ عمومة. أنا لا أفهمُ ذلك».

بن: «نحنُ أولادُ عمومة أو نعتبرُ أنفسَنا كذلك. ولكنَّ عَلاقة القرابة بعيدة نوعًا ما» وراح يَشْرَحُ لَهُ درجة القرابة.

ـ «ولكنّك ستُخْبِر أختَك جيني الكثيرَ عن هولندة عندما تعودُ إلى بلادك».

ـ «نعم سأخبرها أن برويك هي أنظفُ مكانٍ رأيته في حياتي، وأن العمة بوت على غِناها تُمْضي جلَّ وقتها بالعناية بمنزِلها الذي يبدو كلُّ شيء فيه لامعًا».

ـ «لقد رأيتُ الكثير بدوري مما يدعو للإعْجاب بيلادكم، وآمل أن يوفدوني إلى بريطانيا كي أدرسَ في أوكسفورد. ولكنني أحبُّ هولندة أكثر. وأجابه بن: «من الطبيعي أنْ تُحِبّ هولندة أكثر، فأنت لنْ تكونَ هولنديًا وفيًا إن لَمْ تفعلْ، ولكن من الغريب مع ذلك أن يكونَ لديك مِثْلُ هذا الشعور الحارّ إزاءَ مكانٍ بارد كهذا».

وضحك لامبرت وقال: «إنَّ دماءَكم هي الباردة أيها الإنكليز، أما أنا فلا، انظرْ إلى المتزلّجين هنا فوق القناة، إنهم حُمْرُ الوجوهِ كالورود وسُعَداء كأنّهم أمراء».

١١ ـ في الطريق إلى هارلم

فيما كان الأولاد يُتابِعون سَيْرَهم مستبشِرين وَقَعَ نظرُهم على قلعة زوانتبرغ بواجهتِها الحجرية الضخمة وأبراجِ مداخلها التي تعلوها وزّات حجرية منحوتة.

قال بيتر: «لنتوقّفْ قليلاً أيها الفتيان».

وقال لامبرت يشرحُ لمرافقِه: «إن التقاءَ واي وبحيرة هارلم يُحدِثُ نوعًا من الاضطراب. فالنّهرُ أعلى بمقدار خمسَة أقْدام من الأرض، لذا يَنْبغي أنْ تكونَ الحواجزُ وبوابة التحكّم بالمياه منيعةً مُحْكَمة وإلاّ تسرّبت الرطوبة. ويُفْتَرضُ أن تكونَ بواباتُ التحكّم هنا فائقة. سوف نسيرُ فوقها، وسترى ما سوفَ يجعَلُك تفتحُ عينيك مشْدوهًا. ويُقال إنَّ مياهَ البحيرة هنا ناصعةُ البياض أكثر من أيّ مياهٍ أخرى في العالم».

وسأل بن وهو ينظرُ إلى تِلْك الأبراج الحجرية عَمّا تَعْنيه تلك الوزّات المنحوتة؛ فأجابه لامبرت: «إنّ الإوزة هي موضعُ احترامٍ عند الهولنديين، وهي التي أعطتْ تلك القلعة اسمها، قلعة الوزّات، هذا كلُّ ما أعْرِفُه، وهذه البُقْعة مهمّة جدًّا، إذ تُعْقَد الاجتماعات

الاستشارية الخاصّة بشؤونِ الحواجز المائية فيها، كما أنَّ القلعة كانت ذات مرّة مقر إقامة الاحتفال بكريستيان برونغز».

ـ «ومن هو كريستيان برونغز؟»

ـ «كثيرًا ما سمعتُ جَدّي يتحدّثُ عَنْه، وكان يقولُ دائمًا إنّه مهندس عظيم وإنّه عندما تُوفّي حَزِنَتْ عليه الأمّة كلها. إنّه يَنْتَمي إلى طبقةٍ مُثقفةٍ رفيعة وكان مسؤولاً عن الدائرة الحكومية المعنيّة بشؤون الحواجز الخرسانية والدفاعات الأخرى ضِدَّ ماء البحر. ولا حصر للتّحسينات الّتي أدْخَلها على تلك الحواجز والبوابات المائية والطواحين المائية. ونحنُ معشرَ الهولنديين نَعْتَبِر المهندسين الكبار أكثرَ النّاس فائدةً للمجتمع. لقد تُوفّي برونغز مُنْذُ بِضْعِ سنوات وأقيمَ لَهُ تمثالٌ تخليدًا لذكراه في كاتدرائية هارلم».

١٢ - كارثة

كانت الساعة قُرابَةَ الواحدة عندما وصل قائد الفرقة فان هولب وصَحْبُه إلى مدينة هارلم القديمة الكبيرة. وكانوا قد تزلَّجوا مسافةَ ١٧ ميلاً مُنْذُ الصباح، وما زالوا يتمتّعون باللياقة والقوة. وكان الجميع مُجْمِعين، من صغيرهم إلى كبيرهم، على أنهم حققوا أعظمَ مُتْعَة في حياتهم. ورُغْمَ بعض التعب الذي حلَّ بجاكوب بوت عند الميلين الأخيرين فإنّ سعادَتَهُ الغامرة أنْسَتْهُ تَعَبَهُ ورغبته في النوم. حتى كارل شوميل الذي كان حادَّ الطّبع بات أثناء هذه الرحلة أكثرَ ودًّا مع لودفيغ. أما بيتر فكان أسعد السّعداء وهو يتزلّجُ ويَصفِرُ ويُغنّي حتى إنَّ كلَّ من رآه كان يبتسم.

وعندما اقتربوا من أحدِ مقاهي الرصيف في الشارع الرئيس صاحَ بيتر: «تعالوا يا أولاد! سنستريحُ ربعَ ساعة فقط. لا بدَّ أنْ نتناولَ شيئًا».

ومدَّ رئيسُ الفريق يَدَهُ إلى جيبه وقال: «معنا من النقود هنا ما يَكْفي لإطعام جيش!» شَحَبَ وجهُ بيتر فجأةً وراح يدسُّ يديه في صَدْره وجنبيه.

صاح بن: «إنّه مريض».

ردَّ كارل: «كلاّ إنّه فقد شيئًا!»

قال بيتر لاهثًا: «المحفظة! لقد فُقِدَتْ بكلٍّ ما فيها من نقودِنا!»

خَيَّمَ الصَّمتُ على الجميع لبرهة.

أخيرًا نَطَقَ كارل بصوت أجشّ: «كان من الخطأ أن نَـتْرُكَ نقودَنا كُلَّها مع شخص واحد. قلتُ ذلك منذُ البداية. انظرْ في جيبِكَ الآخر».

أطاعَهُ بيتر بصورةٍ آليّة وراحَ يَبْحَثُ في كلٍّ مكان حتّى قُبّعَتِه، وقالَ بِيأس: «لقد فُقِدَتْ! لَيْسَ معنا فلسٌ واحد، ولن نستطيع تناولَ الطعام، ما العملُ الآن؟ لا نستطيعُ أن نتحرّكَ دون نقود، لو كُنّا في أمستردام لكانَ بِوسْعِي أنْ أحْصُل على ما أشاءُ من المال، ولكنّني لا أعرفُ أحدًا في هارلم يُمْكِنُ أنْ يُقْرِضَني بعضَ النقود، ألا يستطيعُ أحدٌ مِنكم أنْ يُقرِضنا بعض الغيلدرات؟»[1]

شَعَرَ الجميعُ بالجوعِ فجأة.

حاول بيتر أنْ يَضَعَ اللومَ على نفسه ويُبْدي الاعتذار. ولكنّ رفاقَه قالوا: «لا فائدة من النّدم الآن، وعلينا أن نفكّرَ بطريقة تُخْرِجُنا من هذا المَأْزِق». وطلب أحدُهم من فان هولب أن يبيعَ ساعتَه. ولكنه رفضَ بإصرار لأنها هديّةٌ من أمه. واقترحَ آخر أن يعودوا أدراجَهم وأن

(١) الغيلدر هو وحدة النقد الهولندية وهو يعادل ماركًا ألمانيًا تقريبًا.

يعاودوا الرحلة بعد يومٍ أو اثنين. قال كارل بسرعة: «أنا لا أجدُ أفضلَ من أنْ نعودَ جائعين».

قال قائد الفرقة وقد لمعَتْ فكرةٌ في ذهنه: «عِنْدي ما هو أفضل».

صاح الجميع به: «قُلْ ما عندك».

ـ «لنحزم أمرَنا أيُّها الفتيان، ليس ثمّةَ مكان أفضلَ من برويك، ويُمْكِنُنا أن نكونَ هناك في غضونِ ساعتين، أموافقون؟!»

صاح الجميع: «موافقون!»

ـ «هيّا إلى زلاّجاتكم،

واحد اثنان ثلاثة.. لننْطَلِقْ!»

وعاد البريقُ إلى عيون الفِتية وهم يَغِذّون الخُطى باتجاه برويك.

١٣ ـ هانز

مسكين هانز! كان وجهُه شاحبًا وشفتاه مُنْكَمِشتين. كان يترلَّجُ وكأنه واقعٌ تحت تأثيرِ حلمٍ مرعب. وفيما هو يُتابع سَيْرَه حيّاهُ بيتر قائلاً: «نهارُك سعيد يا هانز برينكر!»

استفاقَ هانز في الحالِ وقال: «آه يا سيّدي أهذا أنت؟ يا لمحاسنِ الصّدَف أنْ نلتقي!»

أجابَهُ بيتر بانْشِراح: «أنا سعيد لرؤيتِك يا هانز. ولكنّك تَبْدو مُضْطَربًا، فهل أستطيع أن أساعدَك؟»

أجاب هانز، وهو يُرْخي بنظره: «أنا واقعٌ في مشكلة». ثم عادَ ورفعَ نَظَرَهُ وأضافَ بسعادة: «ولكن هانز يستطيعُ أن يساعدَ السيد فان هولب هذه المرة».

سأل بيتر دون أن يحاولَ إخفاء دهشَته: «كيف؟»

ـ «بإعطائِكَ هذا». وقامَ هانز بتسليمِه محفظةَ نقودِه الضائعة.

«يا الله!» صاحَ الأولاد وهم يسحبون أيديهم الباردة من جيوبِهم ليلوِّحوا بها في الهواء بسرور. قال بيتر بلهجةٍ جَعَلَتْ هانز يشعر وكأنَّ الملكَ يَنْحني له:

- «شكرًا يا هانز برينكر».

سَحَبَ بيتر هانز بعيدًا عن الأولاد فيما هم يتصايَحون مُبْتَهِجين وقالَ لَهُ مُتَسائِلاً: «ولكن كيفَ عرفتَ أن هذه حافظةُ نقودي؟»

- «أنت دفعتَ لي ثلاثةَ غيلدرات البارِحة من أجلِ صُنْعِ السّلسلة الخشبيَّةِ البيضاء قائلاً لي بأنّه يَنْبَغي أن أشتريَ زلاّجتين».

- «نعم أذْكُرُ ذلك».

- «لقد رأيتُ حافظتَك، إنّها من الجلد الأصفر».

- «وأين وجدْتَها اليوم؟»

- «غادرتُ مَنْزلي صباحَ اليوم وأنا في غمٍّ عظيم. وفيما كنتُ أتزلّجُ تعثّرتُ ببعض الأشياء المُبَعْثَرة، وفيما كنتُ أفركُ ركبتَيَّ وجدتُ محفظةَ نقودِك تحت قطعةٍ من الخشب». وهُنا راحَ فان هولب يتذكّرُ تفاصيلَ الموقف، وقالَ بعدَ تفكير: «لا بُدَّ أنْ تَمنحنا سعادةَ اقتسامِ النّقود معنا».

رفض هانز ذلكَ بإصرارٍ بطريقةٍ جعلتْ بيتر يشعرُ وكأنّهُ قد صُدِم. ولكنه قال في نفسه: «أحبُّ ذلك الصبيّ غنيًا كان أو فقيرًا». ثُمَّ تابعَ بصوت عالٍ: «هل لي أن أسألكَ عن مشكلتِك يا هانز؟»

- «آه يا سيّدي، إنها قصّةٌ محزنة، ولكنّني انتظرتُ هنا طويلاً، أنا ذاهبٌ إلى ليدن لمقابلةِ الدكتور بويكمان العظيم».

وتساءَل بيتر مُبْديًا دهشَتَهُ: «الدكتور بويكمان!»

- «نعم، وليس عندي أيُّ وقت أُضيّعه، نهارُك سعيد!»

- «قِفْ، إن طريقنا واحدٌ». والتفتَ إلى رفاقِه قائلاً: «أيُّها الرّفاق هلاّ عُدْنا إلى هارلم؟»

صاحَ الفِتْيَة بشوق: «نعم».

وبَدأوا يتحرّكون. قال بيتر وهو يقتربُ من هانز وراحا يتزلّجان معًا بيسر: «سوف نتوقّفُ في ليدن، فإذا كنتَ ذاهبًا إلى هناك برسالة إلى دكتور بويكمان فهل أستطيع أن أقومَ بالمهمّة عنك؟ أعِدُك بأنْ أراهُ غدًا صباحًا إذا كان موجودًا في المدينة».

- «ستكونُ هذه خدمةً جُلّى حقًّا، إنّني لا أخْشى بُعْدَ المسافة، ولكنّني أخْشى تركَ أمّي فترةً طويلة».

- «هل هي مريضة؟»

- «لا، إنّ المريض هو والدي، ربّما سَمِعْتَ أنّه فقَدَ وعْيَهُ منْذُ سنوات عدّة».

وراح هانز يَشْرَحُ لصديقِه كيف يُسيء والدُه معاملةَ أمّه عن غيرِ وعي مِنه، وكيف حاول أن يدافعَ عن أمّه ويَدْفَعَ عنها أذى أبيه. وختَمَ قصّته قائلاً: «لا حاجَة بي إلى القول إنّ والدي لو كان في وعيه لما كان يُؤذي قِطّةً صغيرة».

قال بيتر أخيرًا: «هذا مُريعٌ، كيف حالُه اليوم؟»

- «مريضٌ جدًا يا سيدي».

- «لماذا تَذْهَبُ إلى الدّكتور بويكمان يا هانز؟ هناك أطبّاءُ آخرون في أمستردام يمكن أنْ يُقدّموا لَهُ المساعدة. بويكمان رجلٌ مَشْهور وهو لا يهتمُّ إلاّ بأغنى الأغنياء، وكثيرًا ما يطولُ انتظارُهم لَهُ دُوْنَ نتيجة».

- «لقد وَعَدَني، وعدني بالأمسِ أنْ يأتي لتفقُّدِ والدي في غضونِ أسبوع، والآن وقد حدثت تطوّرات على حالة والدي لم يعدْ من الممكن الانتظار، نحن نعتقدُ أنَّ والدَنا المسكين يُحتضر، أرجو منك يا صديقي أن تتوسّلَ إليه كي يأتي سريعًا، لا يمكن أن ينتظر أسبوعًا فيما والدي يحتضر، هذا الطّبيب لطيفٌ جدًا».

واعترض بيتر بدهشة: «لطيفٌ جدًا! إنّه معروفٌ بأنّه من أخشن الناس في هولندة!»

- «إنّه يَبْدو هكذا، ولكنّني أعرفُ أنّه طيّبُ القلب. أخْبِرْه ما قُلْتُه لك وهو سيأتي».

- «آملُ ذلك يا هانز من كلِّ قلبي، أنتَ في عجلةٍ من أمرِك الآن، عِدْني إذا احتجتَ إلى صديق أن تذهبَ إلى أمّي في «برويك». قُلْ لها إنّني رَجَوْتُكَ أن تقابلَها، والآن يا هانز خُذْ هذه الغيلدرات القليلة، لا مكافأةً بل هدية».

هَزَّ هانز رأسَه علامةَ الرّفض وقال: «لا.. لا.. لا أستطيعُ أنْ

آخذَها، لو أنّني استطعتُ أن أجِدَ عملاً هنا أو هناك لكنتُ سعيدًا، في كلِّ مكان يقولون لي: انتظرْ حتّى الربيع».

قال بيتر بلهفة: «حسنٌ أنّك ذكرتَ ذلك، إن والدي يريدُ مساعدةً فورية. إن السّلسلة اللطيفة التي صَنَعْتَها قد سرّته كثيرًا. وقال إنّك ولدٌ ماهر وينتظرك مستقبل في النّقش، وهو يريدكُ أنْ تَنْقُشَ بوابةَ بيتِنا الصيفيّ الجديد، وسيدفعُ لك مَبْلغًا جيدًا لقاءَ ذلك».

صاح هانز بفرحٍ مفاجىء: «يا إلهي! هذا كثيرٌ، أنا لم أجرّبْ من قَبْلُ عملاً كبيرًا كهذا. ولكنّني واثقٌ أنّني أستطيعُ القِيامَ به».

- «حسنًا، أخبر والدي أنّك هانز برينكر الّذي حدَّثْتُهُ عَنْك، وسيكونُ سعيدًا بأن يخدُمَك». وصاح كارل من بعيد: «والآن أيّها القائد، نحنُ هُنا في وسطِ هارلم ولم تقلْ لنا شيئًا بعد، نحن ننتظرُ تعليماتِك.. ونكادُ نموتُ جوعًا!»

أجابَهُ بيتر جوابًا مَرِحًا والتفت إلى هانز قائلاً: «تعالَ وخذْ شيئًا مَعنا، ولنْ أؤخركَ بعد ذلك».

قال هانز: «آه يا سيّدي، إنّ أمّي قد تحتاجُني.. وأبي قد يسوءُ حاله. يَنْبَغي ألاّ أنتظر، يرعاك الله!»

وأدار هانز وجهَهُ واتّجهَ مُسْرعًا نَحو البيت. أما بيتر فقد صاحَ في رفاقِهِ: «والآن أيُّها الرفاق.. هيّا إلى الغداء!»

١٤ - بيوت مترفة

لم ينسَ الهولنديون الفتيان سِباق التزلج الكبيرِ بالطّبع، والّذي كان سيجْري في العشرين من ذلك الشهر. فقد كان هذا الحدثُ مِحْورَ حديثهم طَوالَ النهار، وحتى بن الذي يَعْتَبِرُ نَفْسَه سائحًا لم تغبْ عن ناظريه صورةُ الجائزة وهي الزلاّجتان الفضيّتان. ولم يشُكَّ للحظة أنّه باعتباره بريطانيًا متفوّقًا في السرعة والقوة قادرٌ على أن يُلْحِقَ العارَ بهولندة بل بالعالم كله. ولم يَفُتْهُ بالتّأكيد العملُ على تطوير مهاراتِهِ ولياقتِهِ استعدادًا للسباق.

أمّا هانز المسكين المُثْقَلُ بالهموم فلم تكنْ تلك الزلاّجتان الفضّيتان تَخْطُرانِ بباله. ولكنّ غريتل كانت تفكِّرُ فيهما يائسةً وتَراهُما أشْبَهَ بكنزٍ لا يُمْكِنُ الوصول إليه. لم تكنْ ريكي وهيلدا وكاترينكا يفكِّرنَ في شيء مِثْلما يفكِّرن في السّباق وموعِدِه. أولئك الفتياتُ الثّلاثُ كنّ صديقات. ورُغْمَ أنّهن كُنّ مُتقارباتٍ في السّن والموهبة والمكانة الاجتماعية فقد كُنَّ على درجة كبيرة من الاختلاف في الطِّباع.

كانت هيلدا ذاتُ الأربعةَ عشرَةَ ربيعًا فتاةً نبيلةً وذات لهفة نحو

الآخرين. أمّا ريكي كوربس فقد كانت جميلةً للغاية وأجمل من هيلدا ولكنها كانت تفْتَقِر إلى جمال الروح الذي كان لهيلدا. كانت متعجرفةً وساخطة وحسودة. كانت تنظر إلى الفلاّحة المسكينة غريتل نظرةً غير إنسانية، ولا تعتبرها إنسانةً مثلها، بل مجرد شيء ما يعني الفقر والقذارة. وأمثالُ غريتل، في نظرها، لا حقَّ لهن بالشعور أو الأمل. إنَّهن يعملن ويشقين من أجل أمثالها ولا شيء غير ذلك. وفي الوقت نفسه كانت ريكي ذكيةً وأنيقة، وذات صوت ساحرٍ، وقادرةً على فَتْنِ شبّانٍ من أمثال لامبرت ولودفيغ.

كذلك كان كارل مغرمًا بها ولكنه فضّل كاترينكا ذاتَ الطبيعة المرحة عليها. كانت مغناجًا في طفولتها ومغناجًا في يفاعتها، ومغرمة بدروسها وواجباتها.

وكانت محبوبةً من كلِّ مَن حولَها. ولكن مَن يقدرُ على حبِّها؟ فهي لم تكن تهتمّ بأحد.

ما أشدَّ الفارقَ بين بيوت أولئك الفتيات الثلاث المنعّمات.. بيوت متفرقة أشبهُ بالقصور، وبين الكوخ العتيق المتداعي الذي تقْطُنه غريتل.

كان كارل على حقّ عندما قال إن كاترينكا وريكي تغضبان من فكرة انضمام الفلاّحة غريتل إلى السباق. وكانت كلتاهما تريان أن انضمامها إليهما أمرٌ مهين ومخجل وسيِّىءٌ للغاية!

كان منزلُ المسكينة غريتل يَعُمُّه الظلام والحزن. كان والدها راف برينكر يتأوّه فوق سريره الخشن، وإلى جانبه زوجته التي غفرت له كل شيء تمسح له جبينَه وشفتيه باكية وتدعو الله أن يمدَّ في عمره. أمّا هانز فكان قد غادر كما نعرف، يائسًا، في طريقه إلى ليدن ليبحث عن الدكتور بويكمان لعلَّه يُقْنِعُه بأن يعاين والده في الحال. أما غريتل فكانت تقوم ببعض الواجبات المنزلية التي تقْدِر عليها. وكانت خائفة على أمها وحزينة من أجلها، وراحت تتوسل إليها كي تذهب إلى الفراش وتنال قسطًا من الراحة. رفضت الأم توسلات ابنتها وقالت إنها لا تستطيع أن تتْرُكَ زوجها.

بدت غريتل حائرة في صمتها وراحت تتساءل ما إذا كانَتْ مذنبةً لأنها تولي عنايتها لأمِّها أكثر من أبيها. إنّها متأكدة أنها تخشى والدَها في حين أنها متعلقة بأمِّها بشغف. وأخذت تفكر: «إنّ هانز يُحبُّ والدَه كثيرًا. فلماذا لا أستطيع أنا أن أحبَّه؟ ومع هذا فأنا لم أستطعْ أن أمنعَ نفسي من البكاء عندما أدمى يده في ذلك النهار من الشهر الماضي. وأنا أشعرُ بالألم الآن عندما أسمع أنينه. ربّما أحِبُّه وسيشهد الله عليَّ بأنني لستُ فتاةً سيئة. أجلْ أنا أحب أبي المسكين كما يحبُّه هانز، أو ربما أقلَّ قليلاً لأن هانز أقوى مني ولا يخافه. أوه يا إلَهي: هل سيظل أبي يتأوّه ألمًا إلى الأبد؟ مسكينة أمي، لَكم هي صبورة! إنها لا تتحدّث مطلقًا، كما أفعل أنا، عن الطريقة الغريبة التي اختفت بها نقودُنا. لو أن والدي يفتح عينيه للحظة واحدة، وينظرُ إلينا،

ويخبرُنا أين ذهبت نقودُ أمّي. . لما باليَتُ بعد ذلك بأي شيء و. . . كلا سأبالي فأنا لا أريد لأبي المسكين أن يموت. أعرف يا إلٰهي الحبيب أنني لا أريد لأبي أن يموت».

وتابعت الصغيرة غريتل حوارها مع نفسها وراحت تقول: «لَكَم هو ماهرٌ أخي هانز! لو كان هنا لاستطاعَ أن يَقْلِب والدي على جنبه الآخر ويخفِّف من أنينه. يا إلَهي! إذا استمر مرض والدي فلن نتزلَّج أبدًا بعد اليوم. أنا وهانز لن نستطيع أن نرى السباق. .» واغرورقتْ عينا الطفلة بالدموع.

قالت لها أمُّها برقَّة: «لا تبكي يا بنيّتي، فهذا المرض قد لا يكون على هذه الدرجة من السوء».

شهقت غريتل بالبكاء وقالت: «أنا لا أبكي من أجل والدي فقط. . أنت لا تعرفين كل شيء. . أنا سيئة جدًّا. . أنا شريرة!»

قالت الأمُّ وهي تنظر إليها بدهشة: «أنت يا غريتل! أنت صبورة وطيّبة جدًّا. . اصمتي يا صغيرتي كي لا يفيق والدك».

أخْفَتْ غريتل رأسها في حضن أمها وتوقَّفت عن البكاء.

١٥ ـ الموسيقى الساحرة في هارلم

خرجَ فِتيَتُنا من المقهى منتعشين فيما كانت الساعةُ تَدقُّ في الميدان مشيرةً إلى الثانية والنصف من بعد الظهر. وكان قائدُ الفرقة ما زال مستغرقًا في التفكير بقصة هانز الحزينة عندما وكزه لودفيغ ضاحكًا: «اصْحُ يا جدّي»! عندئذٍ استفاق بيتر، وعاد ليمارس دورَه كقائدٍ للمجموعة.

ـ «حسنًا! بهذا الاتجاه أيها السادة».

وأثناء السير راح لامبرت يحدّث بن عن بعض العادات التقليدية في مدينة هارلم. من هذه العادات أنه عندما تُرزَق أسرةٌ بمولود ذكر يضعون على باب الدار وسادةَ دبابيس، أمّا إذا كان المولود أُنثى فإنّ هذه الوسادة تكون بيضاءَ اللون دون دبابيس.

وفيما هما يتحدثان قال قائدُ المجموعة مبتسمًا: «سآخذُكم إلى مكان تسمعون فيه موسيقى رائعة، هذا هو الوقتُ المناسب كي نسمعَ أرغن القديس بافون، الكنيسةُ مفتوحةُ الأبواب اليوم».

سأل بن: «أهو أرغن هارلم العظيم؟ ستكون هذه متعةً كبيرة،

كثيرًا ما قرأتُ عن هذا الأرغن بأنابيبِه الضخمة وأصواتِه البشرية التي توحي أصداؤها وكأن ثمةَ عملاقًا يغنّي».

أجاب لامبرت: «نعم إنه هو».

كان بيتر على حقّ. فالكنيسةُ كانت مفتوحة. وكان أحدهم يعزف على الأرغن. وما إنْ دخل الأولاد حتى ترامت إلى مسامعهم موجةٌ زاخرة بالأصوات حملتهم بعيدًا. وأخذت الأصوات تعلو وتعلو حتى أصبحت أشبه بصوت أنواء هائلة أو أصوات هدير الموج.

كان الفِتيةُ ينظر بعضهم إلى بعضٍ دون أن ينبسوا ببنتِ شفة. من يصرخ؟ ما هذا الصراخُ الموسيقي المزعج؟ أهو صوت إنسان أم شيطان؟ أم أنّ هناك وحشًا يكمنُ وراء ذلك الإطارِ النحاسي المحفور؟ أهو صوتٌ بشري؟ أخيرًا أتى الجوابُ على صورة أغنية حنونة رقيقة ودودة، وهدأت العاصفة وانتشرت الطيور، التي كانت مختبئة، في كل مكان تعبّر عن فرحها وتُحلِّقُ عاليًا. أمّا بالنسبة لبيتر وبن فقد بدا لهما أن الملائكةَ كانت تغنّي.

سأل أحدُهُم: «إلى متى سنظل هنا يا كابتن؟ لقد حان وقت الانطلاق». وأيّد كارل كلامه: «هيا دعونا نذهب».

ولم يشأ بيتر أن يخالفَ رأيَ الأكثرية أو يسْتَبقيهم بالرغم منهم.

قال هامسًا: «هيا يا أولاد ننطلق».

صاح بن ما إن وصلوا إلى الهواء الطلق: «هذا أروع ما شاهدتُ أو سمعتُ منذ وصولي إلى هولندة. إنه لأمرٌ مدهش وعظيم!»

قال لامبرت مُعقبًا على كلامه: «أعتقد أنه لا يوجد سوى أرغن واحد أو اثنين هذه الأيام بمثل هذه الروعة، ولكن أرغن القديس بافون ظل لسنوات عديدة واحدًا من أعظم هذه الآلات في العالم». وهنا تدخّل بيتر في الحديث وقصّ عليهم قصةَ المؤلف الموسيقيِّ العظيم هاندل. قال بيتر:

«تصادف أن زار الموسيقي العظيم هاندل مدينة هارلم. وكان أوّلُ مقصدٍ له بالطبع أن يذهبَ لمشاهدة الأرغن الشهير فيها. وبعد أن دخل الكنيسةَ سُمح له أن يعزفَ، فراح يعزفُ بكل ما عُرف عنه من مهارة. وصدف أن جاء العازف المعتاد ليقوم بدوره. ولكنه وقف مشدوهًا. كان عازفًا ممتازًا، ولكنه لم يسمعْ في حياته مثلَ تلك الموسيقى. صاح: «من هناك؟ إذا لم يكن العازف ملاكًا أو شيطانًا فلا بد أنه هاندل!» وعندما اكتشفَ الحقيقة ازداد انبهارًا وقال: «كيف يحدث هذا؟ أنت قُمْتَ بعمل مستحيل. لا تستطيع أيُّ عشر أصابع على الأرض أن تعزف المقاطع التي عَزَفْتَها! فاليدان البشريّتان لا تستطيعان أن تسيطرا على جميع المفاتيح والتوقيفات!» قال هاندل ببرودة: «أعرف ذلك، ولهذا اضطررْتُ أن أعزفَ بعض النوتات برأس أنفي!»

١٦ ـ الرجل ذو الرؤوس الأربعة

بعد أن غادرَ الفتيان الكنيسةَ توقَّفوا عند السوق المكشوف كي يُلقوا نظرةً على تمثال لورنز جانزون كوستر الذي يُعْتَقد أنه الهولندي الّذي اخترع الطباعة. وكانت هذه المسألة موضعَ خلاف مع أولئك الذين نسبوا شرفَ هذا الاختراع إلى يوهانس غوتنبرغ من مدينة مينيس، فيما أصرَّ آخرون على أن خادم كوستر، ويدعى فوستوس، سرق طابعاتِ سَيِّده الخشبيةَ عشيّةَ عيد الميلاد وهرب بغنيمتِهِ وسِرِّه إلى مينيس. كان كوستر من أهالي بلدة هارلم، ومن الطّبيعي أن يَنْسِبَ الهولنديون ذلك الاختراع إلى ابن بلدتِهم اللامع. على أنَّ الشيء المؤكّد هو أن الكتابَ الأول الّذي طَبَعَهُ ما زال محفوظًا في المدينة في حافظة فضيّة ملفوفةٍ بالحرير.

كان من الطّبيعي أن يتجادلَ لامبرت وصديقُه الإنكليزي مُطوَّلاً حولَ هذا الموضوع. كما تجادَلا أيضًا حولَ اختراعٍ آخر بحرارة. فقد زعم لامبرت أنَّ شرفَ اختراعِ المِقْراب (التلسكوب) والمجهر (المايكروسكوب) وإهدائِهما للعالم يضطلع به ميتيوس وجانسن وكلاهُما هولنديّان، في حين أصرَّ بن بعنادٍ على أنَّ روجر بيكون،

وهو راهبٌ بريطاني عاش في القرن الثالث عشر، هو من وَضَعَ أوصاف المجاهر ومقارِب قبلَ أيِّ شخص آخر.

وتابَعَ بن فيما هما يسيران معًا: «ها هو اسمُ واحدٍ من أعظمِ رجالِكم فوقَ تلك القاعدة. إنّه بويرهاف». وراحَ لامبرت يتذكّر: «بويرهاف! بويرهاف! إنّه اسمٌ مألوفٌ تمامًا، أتذكّر أنّه وُلِدَ عام ١٦٦٨، ولكنني لا أتذكّر أيَّ شيء آخرَ عنه، ثمةَ مشاهيرُ كثيرون في هولندة ومن الصّعبِ، كما تعرف، أن أعرفَهم جميعًا، من كان هو؟» وأجابه بن ضاحكًا: «إنّه الرَّجُلُ ذو الرؤوس الأربعة، ذلك أنّه كان فيزيائيًا عظيمًا، وعالِمًا في الطبيعة والنبات والكيمياء، أنا أعرِفُ الكثيرَ عَنْه الآن، ذلك أنّني فَرَغْتُ من قراءةِ سيرتهِ مُنْذُ أسابيعَ قليلةٍ فحسب».

قال لامبرت: «دَعْنا نُسارِعِ الخُطى حتّى لا يغيبَ باقي الفِتْيَة، عَنْ أنظارِنا».

تابَعَ بن وهو يَغِذُّ الخُطى ويتلفّتُ نحو كلِّ شيء لافت للنّظر حَوْلَهُ: «حسنًا كنت أريدُ أنْ أقول إن دكتور بويرهاف كان يتيمًا مُعدَمًا عندما كان في السّادسة عشرة من عُمْره، ولم يحظَ بأيِّ تعليم أو بأيِّ أصدقاء».

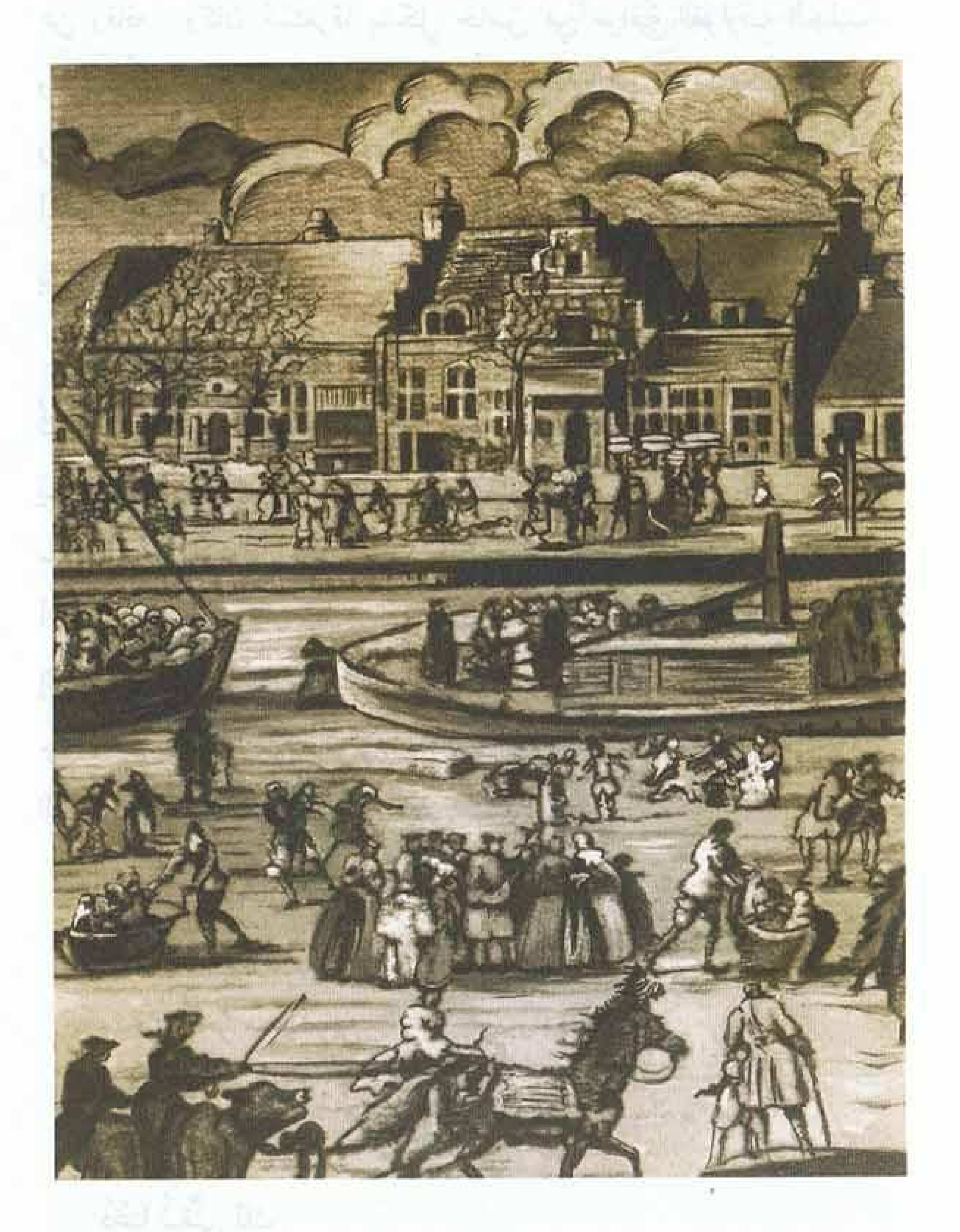
«بدايةٌ طيّبة!» قال لامبرت مازحًا.

أجابَهُ بن بجدّيّة: «لا تُقاطِعْني، كانَ مُثابرًا جدًّا ومصمِّمًا على أنْ يكْتَسِبَ المعرفة، وهكذا شَقَّ طريقَه، ومع الوقتِ أصبح من كبار

العلماء في أوروبا، وقد شهدَ لَهُ كبارُ رجالِ عَصْرِهِ بأنّه كان أستاذًا عظيمًا، حتّى إنّ بطرس الأكبر عِنْدما جاءَ من روسيا إلى هولندة كي يتعلّم بناءَ السّفن تتلمذ على يديه، وفي ذلك الوقت كان بويرهاف أسْتاذًا في الطب والكيمياءِ وعلمِ النبات في جامعة ليدن. ونالَ ثروةً طيّبة من ممارسةِ مهنةِ الطب، وكان أفضلُ مَرْضاهُ مِنَ الفقراء لأنَّ الله هو الذي يَدْفَع عنهم، نالَ الرجل شهرةً كبيرةً وكانت أوروبا كلُّها تُجلُّه، ويُحكى أنَّ أحدَ حكماءِ الصّين أرسل إليه رسالةً بعنوان: «إلى النطاسي البارع بويرهاف في أوروبا» دون أنْ يَذْكُر أيَّ عنوانٍ آخر، ومع هذا فقد وَصَلَتْهُ الرّسالة!»

توقّف الصّبيةُ وسَألوا: «والآن ماذا بعدُ يا كابتن فان هولب»؟ قال قائدُ الجماعة: «أقترحُ أن نتابعَ: إذْ لا شيء يُمْكن أن نشاهدَه في بوخ في هذا الفصل، بوخُ غابة جميلةٌ. حديقةٌ كبيرة يا بن حيث تجدُ أشجارًا هائلةً تحميها الدولة».

واقترح الكابتن أن يتابعوا إلى ليدن الّتي تَبعُدُ بضعةَ أميال. وقال لرفاقه: «لَيْسَ لدينا وقتٌ نُضيعه إذا أردتُمُ الوصولَ إلى ليدن قبلَ مُنْتَصفِ الليل». وتوجّه الجميعُ إلى ليدن.



١٧ ـ فوق القناة

بَدأ موسم التّزلج مبكّرًا على نحوٍ غير عاديّ. ولم يكنْ فتيتُنا وحدَهم بالطبع يمارسون رياضةَ التزلّج. فبعدَ ظهرِ ذلك اليوم كان الجوُّ جميلاً. وتَقاطَرَ الرجال والنّساء والأطفال يستمتِعون بيوم العطلة فوق القناةِ الكبرى، قادمين من أماكنَ بعيدةٍ أو قريبة. وكنتَ تَرى الزّلاجات الجديدة اللاّمعة تجري في كل مكان. كما ترى عائلاتٍ بأكملِها تَشقُّ طريقَها على الزّلاجات مُتّجهةً إلى هارلم أو ليدن أو إحدى القرى المجاورة. كان الجليدُ النّاصعُ البياض يُشيعُ البهجةَ والحيوية. ولفت نظر بن مشهدُ السيدات بملابسهن الجميلة والمتنوّعة ذاتِ الطراز العصري والمستوردة حديثًا من باريس. حتى النساء المسنّات كنّ يتزلّجن وعلى رؤوسهن سلالٌ، أو يحملْن أطفالَهن على ظهورهن. أمّا الرجال فكان مظهرهُم ينمُّ عن سعادةٍ غامرةٍ وقد ارتدى بعضهم الملابسَ العاديّة أو المعاطفَ الصوفيّة القصيرة، وهم يضعون القلائدَ الفضيّة الضخمة. ولاحظ بن أنَّ معظم هؤلاء الرجال تقريبًا يدخّنون الغليون، وكانوا يمرّون بالقربِ منْه وينفثون الدخان كأنّهم قاطراتٌ بخارية.

كان بن يتزلّج صامِتًا. فقد شَغَلَتْه الأشياءُ الكثيرة الغريبة من حوله

عن رفاقه. وكان مُسْتَغرقًا بشكلٍ خاصّ في مراقبةِ القواربِ الجليديّة وهي تَطْفو فوق بحـيرةِ هارلمر الكُبرى، والّتي كان سطحُها يُرى واضحًا من بعيد. كان بعضُها مطليًا بألوانٍ زاهية، وبعضها الآخر كان أبيض ناصعًا كالثلج وكانت تَبْدو بأشرعتها التي تهزُّها الرياح أشبه بالوزّات.

كان وجودُ مِثْلِ هذه القواربِ شيئًا نادرًا فوق القناةِ، وكانت رؤيتُها تُثير اهتمامَ المتزلّجين وشغفَهم. وجاء قاربٌ ضخم من هذه القوارب يَسْري بأشرعتِه المرفوعة فوقَ القناة مُنْدَفِعًا بسرعة حتى خُيّل لِبن أنّه سيرتطمُ به. وجاءَ بعدَهُ قاربٌ جليديٌّ جميل ذو أشرعةٍ متينةٍ يَسْري أمامهم مزهوًّا. وكان على مَتْنِه عددٌ كبيرٌ من الأطفال، فإذا ما نظرتَ إليهم تَرى وجوهَهُم مستبشرة وملابسَهم زاهيةَ الألوان. كانوا يغنّون في جوقة تكريمًا للقدّيس نيقولا. وكانتِ الموسيقى المنبعثةُ من حناجِرهم المتعدّدة تصدَحُ بانسجام رائع وهي تُنْشد:

يا صديقَ البحّارة والأطفال!
لنا منك الكثير
ونحن نُبْحِرُ مستبشرين
فوقَ بحرٍ متجمد!
أيُّها القدّيس نيقولا
دَعْنا نُغنّي لك
عبرَ رياحِ الشّتاء نحنُ نَنْدفع

وأصواتُنا تَمْتَزجُ وتتآلف
هل أنتَ قريبٌ منّا؟ هل تَسْمَعُنا
يا صديقَنا نيقولا؟
أيُّها القدّيس نيقولا
حُبّنا لكَ ليسَ لَهُ نهاية.

١٨ ـ جاكوب بوت يُغيّر الخطّة

شَعَرَ فتيتُنا بجهودِهم العبثيّة لمتابعةِ القارب بأنظارِهم وكأنّهم يتزلّجون إلى الوراءِ، وراح أحدهُم يحدّقُ بالآخر.

صاحَ فان موينين بدهشة: «ما أجملَ ذلك!»

وعقّب لودفيغ: «إنّه لشيءٌ أشبهُ بالحلم!»

اقتربَ جاكوب من بن وقالَ بإنكليزيّةٍ ركيكة:

«هذا شيءٌ رائع! رائعٌ جدًّا! أشعرُ أنّ من الأفضلِ أنْ نذهبَ إلى ليدن بالقارب!»

قال بن مُنْدَهِشًا: «بالقارب! لماذا يا صديقي؟ إن خطّتنا تَقْضي أن نتزلّج لا أنْ نُحْمَل كالأطفال».

قال جاكوب مُسْتَنْكِرًا: «القاربُ ليس للأطفال!»

كانَ من المُمْتع حقًّا بالنسبةِ للأولاد أنْ يركَبوا قاربَ الجليد، لو أتيح لهم ذلك. ولكن مَنْ كان يَجْرؤ على طرحِ فكرةٍ تُخالِفُ الخطّة التي اتفقوا عليها؟! وجرى بينهم نِقاشٌ وديٌّ. ودعاهم القائد بيتر إلى وقفةٍ وقال لهم: «يَصْدِمني أنه يَنْبَغي أن نناقشَ رغباتِ جاكوب في هذهِ المسألة. إنّه يَخْشى هذه الرحلة أتعلمون ذلك؟!»

كارل: «عَجبًا! مَنْ يَشْعرُ بالتعب؟ نستطيع أن نرتاحَ الليل بطولِهِ في ليدن».

شَعَرَ كلٌّ من لودفيغ ولامبرت بالقلقِ والخَيْبَة. إذ لم يكنْ ثمّةَ ما يبرّر إضاعةَ فرصةِ التزلّج من برويك إلى لاهاي والعودة. ولكنّهما اتّفقا على أنّ على جاكوب أن يُقرِّر هذه المسألة.

شَعَرَ جاكوب الطيّب بأنَّ جميعَ رفاقِهِ يفضّلون التزلُّج، وقالَ مُتحاملاً على نَفْسِهِ: «أوه! كلاّ. كنتُ أمْزَح. سوف نتزلّجُ بالطّبع».

صاحَ الأولادُ بسرور، وانطلقوا ثانيةً بحماسةٍ متجدّدة. إلا أنَّ جاكوب لم يكنْ بمثلِ حماستِهم وحيويّتِهم. فقد أحسَّ فجأةً بالإعياء وشَعَرَ بشيء كالحمّى يَسْري في بدنِهِ ويجعلهُ يَرْتَعش.

صاحَ فان موينين: «انظروا إلى بوت!»

حَمَلَهُ كلٌّ من كارل وبيتر. كان وجْهُهُ شديدَ الشحوب، حتى بَدا أشبهَ بالأموات.

تجمهرَ بعضُ النّاس حولَه. وراحَ بيتر يفكُّ لَهُ أزرارَ معطفِه.

صاح بيتر: «ابتعدوا عَنْه أيّها الرجال الطيّبون! دَعوه يتنفّسُ الهواء!»

صاح أحدهم: «دَعوْه يقفُ على قدميه».

صاحَ آخر: «أعطوه شيئًا».

وردّد خَلْفه آخر: «نعم، نعم! أعطوه شيئًا!»

وراح بيتر بمعاونة بن، يدلِّك جاكوب من رأسِه حتّى قَدَمَيْه، حتى زالَ عنه الشّحوب. وفَتحَ عينيه، وراحَ يَنْظُر إلى مَنْ حولَهُ بشيءٍ من الحيرة والخجَل معًا.

لم يعدْ ثمةَ خيارٌ أمامَ فِرقةِ الفِتيان سوى أنْ يحملوا رفيقَهم المُتعَبَ بطريقةٍ ما إلى ليدن. ذلك أنَّ التزلّج باتَ مستحيلاً.

ومَرَّ بالقربِ مِنهم قاربٌ جليديٌّ أنيق، ولكنّ الفتيةَ لم يتمكّنوا من إيقافِه. ومَرَّ قاربٌ آخر، وأشارَ إليه بيتر للتوقّف. أبْطأَ القاربُ شيئًا فشيئًا ثُمَّ توقّف.

صاحَ بيتر: «هل لكَ أن تأخذَنا على مَتْنِ القارب؟»

وصاحَ كارل: «سوف ندفعُ لكَ أُجرةَ الركوب».

قال الرجلُ الواقف على ظهرِ المَرْكَب: «كم عددكم؟»

بيتر: «ستة».

الرجل: «حسَنًا، إنّه عيدُ القدّيس نيقولا، هيّا اصعدوا أيُّها الصّغار!»

وانطلقَ المَرْكَبُ بالأولاد ومعهم جاكوب الّذي كان يتحاملُ على نفسِه. صاح بن: «أوه، ما أشدَّ سرعةَ هذا المركَب!» والتفتَ إلى جاكوب مُسْتَفْسِرًا: «هل تشعرُ بالتّحسن يا جاكوب؟»

جاكوب: «شُكرًا لك. أنا أفضلُ كثيرًا الآن».

شعرَ بن أنَّ جاكوب يغالِبُ النّعاس فقال له مشفقًا:

ـ «لا تنمْ يا جاكوب فالبردُ قارس، قد لا تَصْحو إذا نمت، فالنّاسُ قد يتجمّدون في مثل هذا البرد إذا ما غفوا».

ولكن جاكوب لم يستطع أن يقاومَ سُلْطان النوم.

صاح بن: «يجب أن نوقِظَهُ، النّومُ خَطِرٌ على حياته!»

اعترضَ القائد بيتر على كلامِه قائلاً: «هذا هُراء! لا تهزّوه.. دَعُوه ينام، سينهضُ نشيطًا عندما يستيقظ، غطّوه بشيءٍ ما». والتفت إلى ربّان المركَب يسألُهُ: «كم نَبْعُد عن ليدن؟»

أجابَه صوتٌ ينْبَعثُ من وسطِ الدّخان وكأنّه جنّيٌّ: «ليسَ أكثر من مسافة غليون ونصف!»

سألَ بن مستغربًا: «ماذا يقولُ هذا الرجل يا لامبرت؟!»

لامبرت: «يقول إنّنا على مسافةِ غليونين من ليدن، فالنّاسُ فوق القناة يَقيسون المسافةَ بمقدارِ الوقت الذي يمضونه في تدخين غليون».

كانت سفرةً رائعةً فوقَ المركَب، وشَعَرَ الفِتيةُ وكأنّهم يطيرون فوق بساطِ الريح كالسّندباد. وفيما هم يتنشّقون الهواءَ بعمقٍ لاحتْ لَهمْ ليدن وكأنّها ترْنو إليهم. وحان وقتُ إيقاظِ جاكوب. ونهضَ جاكوب وقد استعادَ عافيتَه تمامًا. لقد كانتْ فكرةُ بيتر صحيحةً تمامًا!



١٩ ـ نَـزْلُ السّيد كليف وقائمةُ الطعام

سُرعان ما عَثرَ الفِتْية على نَـزْلٍ اسمه «الأسد الأحمر» في الشّارعِ العريضِ يملكُه رجلٌ هولنديٌّ يُدْعى هيو غينز كليف. وكانَ الفتيةُ على درجةٍ شديدةٍ من الجوع. وما إنْ دَخَلوا المكان حتّى صاحَ بيتر: «تعالَ أيُّها المضيف وأَعْطِنا ما يُمكن أنْ تقدِّمه لنا».

قالَ السّيد كليف: «أستطيع أنْ أقدّمَ لكُم أيَّ شيء، كلَّ شيء».

ـ «أعْطِنا بعضَ السُّجقِ والحلوى».

ـ «لقد نفدتْ جميعها».

واقترحَ عليه الفِتيةُ صنفًا آخر من الطعام فاعتذَر عن عدم توفُّره. ثُمَّ اقترحوا البيضَ المَقْلي، واعتذرَ أيضًا عن عدمِ توفّره. وأخيرًا نَفَدَ صبرُ الأولاد وقال له أحدُهم: «حَسنًا أيّها المضيف ما عِنْدك كي تقدِّمه لنا؟»

ـ «عندي كلُّ شيء، عندي خبزٌ وسلطةُ البطاطا وأكبرُ سمك سردين في ليدن».

صاح الفتية الجائعون: «حَسنًا هات ما عندك، فقط أسرع». وما كاد صاحبُ المكان يُحْضِرُ لهم الطعامَ حتّى التهمَه الصّبيةُ بسرعة

أذهلته. وجَلَبَ لَهم المزيد من الخبزِ وسلطةِ البطاطا والقهوةِ والعصير. وانتظرهم حتى شبِعوا وارتووا وسألهم: «هل تريدون أسِرَّة؟» أجابَه بيتر: «لِمَ لا؟» وتابع بيتر:

ـ «نريدُ أن تكون الغرفُ جاهزةً في تمامِ التاسعة».

ـ «عندي غرفةٌ جميلةٌ بثلاثةِ أسرّةٍ تَسَعُكُمْ جميعًا».

قَبِلَ الفِتْيَةُ الغرفةَ على مضض.

توجّه بيتر إلى رفاقِه قائلاً: «والآن أيُّها الرِّفاق عَليَّ أنْ أبحثَ عن الدكتور بويكمان العظيم قبل أنْ أنام، إذا كان موجودًا في ليدن فلن يكون من الصّعب العثورُ عليه. هو يَنْزِلُ عادةً في فندق «النّسر الذهبي» عندما يَأتي إلى هذه المدينة. وأظنُّ أنكم لنْ تَذْهَبوا إلى النّوم في الحال، ما رأيكم لو تتمشون إلى المتحفِ أو «الستادهاوس»؟

قالَ لودفيغ ولامبرت: «موافقان»، في حين فَضّل جاكوب أنْ يُرافق بيتر. وحاول بن عَبَثًا أنْ يثنيَ جاكوب عن ذلك، وطلبَ إليه أنْ يرتاحَ في الغرفة. ولكنَّ جاكوب أصرَّ على مرافقةِ بيتر حتى يُشاهدَ المدينة، فقد كانتْ هذه أولَ زيارةٍ لَهُ إلى ليدن.

كان الفتيةُ سعداءَ عِنْدما وَجَدوا المدفأةَ مشتعلةً في غرفتهم في نزلِ «الأسد الأحمر» عندما عادوا إليها. وصَلَ كارل ورفاقه أولاً ثُمَّ جاء بيتر وجاكوب. عادَ بيتر خائبًا لأنه لم يستطعِ العثورَ على الدكتور بويكمان. قالَ لَه مالكُ فندق «النّسر الذهبي»: «إنّه يُقيم هنا دومًا

عندما يَأتي إلى المدينة. وعندما يحضرُ يتجمّع الزبائن أمامَ بابي ينْتَظرون دورهم لمقابلته».

ولم يُخْفِ مالكُ الفندق امتعاضَه من الطبيبِ بويكمان بسبب ترفُّعِه وسوءِ معاملتِه للآخرين. وراحَ يَحْكي لبيتر كيفَ أهانَهُ الطَّبيب ذاتَ مرّةٍ أمام مَلأٍ مِنَ النّاس.

لم يمنعْ حديثُ المالك غيرُ الودّي عن الطبيب بيتر من أنْ يَطْلب إليه أن يتركَ رسالةً عِنْدَما يَصِلُ الدكتور بويكمان.

كانَ هذا النزل دارةً غَـنّاء في يومٍ من الأيام، فقد كانَ منزلَ مواطنٍ ثريّ. ولكن مع تقادُمِهِ باتَ منظرُهُ بائِسًا، وتناقلتْه الأيدي حَتّى وصَلَ أخيرًا إلى ملكية السّيد كليف. وكان السيدُ كليف مُغْرمًا بالقول، ووهو ينظرُ إلى جدرانِه المُتداعية: «إذا ما أصلحتُه وطليتُه فسيكونُ أجملَ بيتٍ في ليدن».

جَلَسَ الفِتْيَة في إحْدى قاعاتِ الفندق يتسامرون. وكان يجلسُ إلى جانبِ المدفأة رجلٌ يَنْظُر إليْهم خلسة. لم يعجب منظرُه لودفيغ، فقال يُخاطب كارل هامسًا: «إنّني غيرُ مرتاحٍ إلى هذا الرجل الذي يَبْدو كاللصوص».

ـ «لماذا تحدّق فيه كثيرًا؟»

ـ «لا أدري!»

صَعِدَ الأولادُ أخيرًا إلى غرفتِهم الجميلةِ ذاتِ الأسرّةِ الثّلاثة.

كانتِ الغرفةُ باردةً، فالنّارُ المشتعلةُ داخِلَ المدفأة كانتْ أشبَهَ بالشّمعة. أمّا بلاطُ الغرفةِ البارِدِ فقد بَدا كصفحةٍ صفراءَ من الجليد. كان مِنَ المستحيل على الأولاد أن يُحشروا في أسِرّتهم على هذا النّحو إلا أنَّ الإعياءَ والعَناء قد أنسياهم كُلَّ شيء وجعلاهم يُلقون بأجسادِهم على الأسِرّة دُوْنَ أنْ يُبالوا بأيِّ أمر. قال بيتر لرفاقه من تحتِ الغطاء: «تُصْبحون على خير». وأجابَهُ الجميع، عدا جاكوب الّذي كان يغطُّ في نومٍ عميق: «تُصبحُ على خير».

كان الوقتُ منتصفَ الليل. وانطفأتْ نارُ المدفأةِ الشاحبة، وحَلَّ ظلامٌ دامِسٌ لولا بصيصٌ من ضوءِ القمرِ كان يتسلّلُ إلى الغرفة. ولم يكنْ ضوءُ القمرِ وحدَه يتسلّلُ إلى الغرفةِ، بل كان ثمةَ شبحٌ آخر يتسلّلُ فوقَ بلاطِ الغرفة ببطء.

خُيّل للودفيغ أنَّ الشّبحَ الّذي يتحرك، وهو بين النّومِ واليَقظة، هو شبحُ ذلك الشّخص الذي كان ينظرُ إليه شَزَرًا في قاعةِ الفندق. وظَلَّ الشّبحُ يَقْترِبُ، ولم يجدْ لودفيغ مَناصًا من أنْ يُوْقِظَ بيتر مُنْذِرًا إيّاه من خَطَرٍ ما. صَحا بيتر من نومِه ونظَرَ حَوْلَهُ فَرَأى شبحًا يَقْتربُ مُنْحَنيًا فوقَ بلاطِ الغرفة. كان يراقبُ في الظّلام. وسُرعان ما تحرّكَ ثانيةً وراح يقتربُ شيئًا فشيئًا. إنّه إنسانٌ يدبُّ على يديهِ وقدميه! كانَ الزاحفُ يَحْمِلُ سكينًا في يده تَلْمع في الظلام. وكان بيتر يراقِبُهُ بتحفّز. وعندما التفتَ اللصُّ ليضعَ السّكّينَ جانبًا انقضَّ عليه بيتر بكلِّ قوّة وألقى بِثِقْلِهِ على ظهرِ اللصّ المتسلّل واستطاعَ أنْ يَشُلَّ حركتَه.

وصاحَ في رفاقِه: «اصحوا أيُّها الفِتيان، اصحوا! ساعِدوني! لقد أمسكتُ بِهِ، هيّا انهضوا جميعًا!»

وسُرعان ما نَهَضَ فان موينين وبن. صاحَ كلاهما: «والآن ماذا نعملُ؟» قال بيتر ببرودةٍ، وهو يهدّد اللص الّذي وَقَعَ على الأرض ألاّ يأتي بأيِّ حركة: «هات هذا الحبل!»

ساهم لودفيغ ورفاقُه في إلقاءِ الأغطية على اللصّ ولفِّ الحبلِ حوله حتى لا يستطيعَ حَراكًا. أمّا بيتر فقد ظَلَّ جاثمًا فوقَهُ كالصّخرة. وتمكّن الأولادُ من تقييد ذراعيْهِ وقدميْه بقوّة. وشعرَ الأولادُ بنَشْوة النّصرِ بعدما تمكّنوا مِنْه تمامًا وباتَ تحتَ رحمتِهم.

وراحَ اللصُّ بعد أن أُسقِطَ في يدِهِ وباتَ غيرَ قادرٍ على الحَراك يتأوّه ويتوسّل إلى الصّبية كي يطلقوا سراحَه، ويستعطِفُهُمْ قائلاً: «فكّوا وثاقي أيُّها الفتيان فأنا أب لخمسة أطفال صغار ينتظرونني في البيت، أُقسم لكم بالقدّيس بافون أنّني سَأُعْطي كُلَّ واحد مِنْكُمْ ١٠ غيلدرات إذا تركتموني». سَخِرَ الأولادُ من توسّلاته.

قال بيتر: «لا فائدةَ من الانتظار والبقاءِ هنا. لا خَطَرَ مِنْه الآن. سأذهبُ أنا وأنت يا لامبرت إلى مخفرِ الشّرطة».

صاحَ أحدُهم: «أين كارل؟»

تفقّد الجميعُ كارل فلمْ يجدوا له أثرًا في الغرفة. بَيْدَ أنّهم لم يلبثوا أنْ سمعوا لغطًا متأنّيًا من الممشى. فتح بن الباب فإذا به وجهًا

لوجه أمام مالكِ الفندق وفي يده بندقيّة قصيرة، وقد وقف خلفَهُ ثلاثةٌ من نزلاء الفندق، وكان معهم أيضًا ابنةُ صاحبِ النزل وفي يدِها شمعة، ووقفَ كارل إلى جانبِها شاحبًا وخائفًا.

قال بيتر مُخاطِبًا صاحبَ الفندق: «إليكَ هذا الأسير، إنه مقيّدُ اليدين والقدمين».

أخذَ لودفيغ الشمعدان من يدِ الفتاة واقتربَ من اللص الجاثم على الأرض كي يُلْقي نظرةً على وجهه. ولم يكدْ يتمعّن فيه حتّى شَحُبَ وجهُهُ، وصاحَ: «أيُّها الرّفاق إنّه الرجلُ نفسُه الذي كانَ جالسًا في القاعة قُرْبَ المدفأة ويرمقنا بنظراتٍ دنيئة!»

قال بيتر: «نعَمْ هو بالتّأكيد. لقد كُنّا نَعُدُّ نقودَنا أمامَهُ كالمغفّلين. والآنَ ماذا نفعل بهذا الخسيس يا لودفيغ؟ هل يَكْفيه شهرٌ في السّجن».

قال مالكُ الفندق غاضبًا: «يا للنّذل! لقد أساءَ إلى سمعةِ فندقي. سأذهبُ لاستدعاءِ الشّرطة في الحال».

وفي أقل من ربعِ ساعة حَضَرَ ضابطان من الشّرطة. وقبْلَ أنْ يصطحِبا اللّصَّ المقيّد معهما، أخبر أحدُهما السيّد كليف بأنّ عليْه أنْ يحضُر مع الفِتية صباحَ الغد كي يقدّموا شكوى رسمية.

وعادَ الفتيةُ إلى النّوم بعد عناءِ يومٍ طويل.

٢٠ ـ أمام المحكمة

قال مالكُ النَّـزْلِ للنّادل: «دَعِ الفتيةَ الشّجعان ينامون. وعندما يستيقظون سوفَ أُعِدُّ لهم طعامًا شهيًّا وسخيًّا».

كانتِ السّاعةُ العاشرة عِندما أخَذوا يتقاطَرون الواحد خَلْفَ الآخر. قال بيتر: «إنّها ساعةٌ سعيدة. حانَ الوقتُ كي نَمْثُلَ أمامَ المحكمة. إنّه عملٌ مفيد من أجلِ هذا الفندق ذِي السّمعةِ الجيّدة. سوف تَشْهدون بالحقِّ أيّها الشّباب وتقولون إنّنا وجدْنا لديه إقامةً طيّبة وطعامًا جيّدًا».

قال كارل: «طَبْعًا سنشهد بذلك».

ذَهَبَ الفتيةُ بَعْدَ تناولِ طعامِ الإفطار إلى محكمةِ الشرطة يَصْحَبُهم السيّد كليف وابنته. وكانتْ شهادةُ كليف تُفيْدُ بأنَّ الفندقَ لَمْ يسبِقْ أن تعرّضَ إلى حادثة سرقةٍ كهذه. وأن فندقَ «الأسد الأحمر» فندقٌ محترم كأيِّ منزلٍ في ليدن. وأدْلى الأولادُ بدورِهم بشهادتهم وذَكَروا كُلَّ ما رأوه. وتعرّفوا على السّجين في القفصِ بوصفِه الرجل الذّي تسلّل إلى غرفتِهم تحتَ جُنْح الظلام. أمّا شهادةُ ابنةِ مالك الفندق فقد جعلتْ بيتر يشعرُ بالخجل، فيما ابتسمَ كلُّ مَن كان في المحكمة. فقد

قالت الفتاة، وهي تَقصِد بيتر: «لولا ذلك الفتى اللطيف لكانَ جميعُ الفتية قد قُتِلوا وهم في أسرّتهم. ذلك أن المجرمَ كان يحملُ في يدِهِ سكّينًا ضخمة». وأضافتْ: «لقد ناضلَ هذا الفتى برجولةٍ كي ينتزِعَ مِنْه السكين. ولكنْ كان من التواضع الجمّ بحيثُ إنّه لم يشأْ أن يتحدثَ عن نفسه». وأخيرًا وبعدَ استجوابٍ من جانبِ المُدّعي العام انصرفَ الشّهود، وسُلِّمَ اللصُّ إلى محكمةِ الجنايات.

صاحَ كارل بقسْوة عندما وصلَ الصبية إلى الطريق: «يا للنذل! كان يَنْبغي أن يُزجَّ بِهِ في السّجن في الحال. لو كنتُ مكانك يا بيتر لكنتُ أجهزتُ عليه تمامًا».

وكان جوابُ بيتر الهادىء: «لقد كانَ محظوظًا إذن إنه وقَعَ في أيدٍ رحيمة. ويُخيَّلُ إليَّ أنّه قد سبقَ لَهُ أن اعْتُقِل بتهمةِ اختراقِ حرمةِ المنازل. لقد أخفقَ في السرقة هذه المرة، ولكنه كَسَرَ أقفالَ الباب، وهذا ما يُشكِّل عمليةَ سَطْو في نظرِ القانون. كما أنه كان مُسلَّحًا بسكّين، وهذا ما سيجعلُ عقوبتَه أفظع. يا لَهُ من مسكين!»

غَضِبَ كارل من كلامِه وقال له: «أراكَ تُشْفِق عليه». فأجابه بيتر بتمنّيه أنْ يكون حكمُ القانون دَرْسًا مُفيدًا له لا وبالاً عليه.

٢١ ـ مدن محاصرة

قال لامبرت وهو يتمشّى مع بن: «ها هو الميدانُ الفسيحُ يَنْفَتِح أمامَنا. ما أجملَه في الصّيف بأشجارِه الوارفة! إنّهم يُطْلقون على هذه السّاحة اسم «الخراب»، فقد كانت البيوتُ تملأُها قبلَ سنواتٍ وقناةُ رابينبرغ هنا كانتْ تشقُّ الطّريق. وذاتَ يومٍ وقع انفجار هائل أدّى إلى تصدّع مئاتِ البيوت كما أودى بحياةِ عشراتِ النّاس».

سأل بن مُنْدَهشًا: «هل كان الانفجارُ شديدًا إلى هذه الدرجة؟»

ـ «نعم يا عزيزي: كان والدي في ليدن آنذاك. وقال إنّ الانفجارَ الذي حدثَ عِنْد الظهيرة كان أشبهَ بالبركان. وسرعان ما احترقَ هذا الجزء من المدينةِ بالكاملِ في لحظات، وتَداعتِ الأبنية، ودُفِن عشراتُ الرجال والنساء والأطفال تحتَ الأنقاض. وجاءَ المَلِكُ بنفسِه إلى المدينة ليشرفَ على عملياتِ الإنقاذ، ويشجّعَ المنقذين على إطفاءِ الحرائق وإنقاذِ النّاسِ من تحتِ أكوامِ الأنقاض.

حَدَث هذا الخراب عام ١٨٠٧، وكان والدي إذْ ذاك في التّاسعةَ عشرةَ من عمره، وكان يَذْكُرُ الأحداثَ جيّدًا».

أرادَ بن أن يشاركَ في الحديث ويُظْهِرَ أنّه على درايةٍ لا بأس بها

بتاريخ هولندة. وراح يقصُّ على رفاقِه قصّة البطلِ الهولنديّ فان ديرويرف الذي وَقَفَ في وجهِ الإسبانيين المجرمين شهورًا طويلة، بعد أنْ حاصَروا المدينة من كلِّ جانب وقذفوها بالحممِ من القلاعِ البعيدة. ولكنَّ المدينةَ لم تَسْلَمْ. كان كل رجلٍ فيها بطلاً وكذلك كانت النّساء والأولاد. وعندما امتدَّ الحِصارُ حولَ المدينة وانتشرَ وباءُ الطّاعون يطْحَنُ أرواحَ الناس، وعندما كان النّاسُ يلتفّون من حول فان ديرويرف، وقد عَصَفَ بهم الجوعُ والمرض، كان يقولُ لهم: «لقد أقسمتُ على أنْ أدافع عن هذه المدينة، وبعون الله سأفعلُ هذا، وإيّاكم أن تتوقعوا أن أستسلمَ ما دُمتُ على قيدِ الحياة!»

وتابع بن قصته فقال: «إنّني أعتبرُ فان ديرويرف أحدَ أهمِّ الأبطال الكِبار في نظري. وأعتقدُ بحقّ أنَّ حصارَ هارلم قد دلّ على شجاعةٍ ومقاومةٍ بطوليّةٍ أكثرَ من حصارِ ليدن رَغْمَ أنَّ المحاصرين في ليدن قد ضَرَبوا بدورهِم المثَلَ على الشجاعة والصلابة».

٢٢ ـ ليدن

التقى الصّبيةُ في المتحف وسُرْعان ما انشغَلوا بالمجموعةِ الكبيرةِ من التّحفِ والعجائب. وأُتيحتْ لهم الفرصةُ كي يطّلعوا على الحياةِ بوجهيها القديم والمعاصر. لقد أُتيحَ لبن ولامبرت أنْ يزورا المتحف البريطاني مِرارًا، بَيْدَ أنَّ هذا لم يمنَعْهما من التّمتع بما في متحف ليدن من تُحَفٍ غنية. فقد كانتْ هناك أدواتٌ منزليّةٌ، وملابسُ تاريخيّةٌ، وأسلحةٌ وأدواتٌ موسيقيّة، ومومياءاتٌ لبشرٍ وحيوانات.

وكان ثمةَ آثار مثيرة للاهتمام من روما واليونان، وبعض الأواني الفخّاريّة الغريبة التي اكتُشِفَتْ عند الحفرِ قُرْبَ لاهاي. إنّها آثارٌ تدُلُّ على فترةِ وجودِ مواطني يوليوس قيصر الذين أقاموا هناك.

وعندما غادرَ الصّبيةُ ذلكَ المتحف توجّهوا إلى متحفٍ آخرَ يضمُّ مجموعةً من الحيواناتِ الأحفورية والهياكلِ العظمية، والمعادنِ والأحجارِ الكريمة. وإلى جانبِ التّاريخ الطبيعيّ هذا كان لا بدّ مِنْ زيارةِ كنيسةِ سان بطرس التي تَضمُّ النّصبَ التّذكاري للبروفسور لوزاك، وتمثال بويرهاف المصنوع من المرمر الأبيض والأسود. وسُمح للأولاد أن يرتادوا حديقةَ الشّاي التي يفِدُ إليها الكثيرُ من النّاس في الصيف.

لم يكنْ من المُمْكِنِ للأولاد في ذلك اليوم الوصولُ إلى تمثالِ فان ديرويرف في هوغلاندش كيرك، ولكنّهم أمضوا دقائقَ مُمْتِعة في «الستادهاوس» أو قاعةِ المدينة. ولدى صعودِ الأولاد الدَّرجَ العظيم وجدوا أنفسَهم في شقةٍ كئيبةٍ بعضَ الشيء تَحْتَوي على نفائسِ لوكاس فان ليدن أوهوغينس، وهو رسّامٌ هولندي كان يرسمُ جيّدًا عندما كانَ في العاشرةِ وأصبحَ فنّانًا متميّزًا عندما صار في الخامسةَ عشرةَ من عمره. ولوحتُه هُنا اسمها «المحاكمة الأخيرة» التي تُصوّرُ العصرَ القديم الذّي رُسمت فيه، كانتْ تحفةً رائعة. كذلك أثارتِ اهتمامَهم لوحاتُ هاريل دي مور وغيره من الفنانين الهولنديين المشهورين.

وتقعُ قاعةُ المدينة وكذلك المتحفُ المصري في شارع «بريدشترات» أطول وأجمل شوارعِ ليدن.

بعد تناولِ طعام الغداء جلسَ الصبيةُ يتدفأون في الفندق. ولكنّ بيتر لم يكنْ معهم. فقد ذهبَ في محاولةٍ أخرى للعثور على الدكتور بويكمان، ولكنه لم يُوفّق أيضًا هذه المرة.

استعدَّ الفتيةُ مرّةً أخرى للتزلّج. كانوا على بُعد ١٣ ميلاً من لاهاي. لم يكونوا متنشّطين كما كانوا عندما غادروا برويك باكرًا في اليومِ السّابق، ولكنّ روحَهم المعنويّة كانت عاليةً، والجليدُ كان رائعًا.

وفيما كان الأولاد يتزلّجون كانوا يُشاهدون في طريقِهم عددًا من معالمِ المدينة المزيّنة والمسوّرة وَفقًا للذوق الهولندي، والتي تسرُّ

النّاظرين بمبانيها الرسميّة الضّخمة وحدائِقها المنسّقة وأسوارِها المربّعة.

قطعَ الأولادُ مسافةً تُقارب اثني عشر ميلاً. وكان أمامَهم بضعةُ فراسخ أخرى حتّى يصِلوا إلى لاهاي عندما اقترح فان موينين أن يتحوّلوا إلى المشي داخلَ المدينة بدلَ التزلج، وذلك عبرَ «غابة بوش».

صاحَ الجميع: «موافقون»! وسرعان ما خَلعوا زَلّاجاتهم. كانتْ غابة بوش عبارة عن حديقةٍ ضخمة طُولها ميلان تَضمُّ قصرَ الغابة الاحتفالي الذي كثيرًا ما استُخْدمَ مقرَّ إقامةٍ للأسرة الملكيّة. وهو بناءٌ أنيقُ الأثاثِ دقيقُ الزخرفة يزدانُ باللوحاتِ والنّقوشِ والطرازات. أمّا الحديقةُ المحيطة بالقصر فكانت ساحرةً وخاصّةً في الصّيف حين تجعلُها الأزهارُ الخلاّبة والطّيور الشادية أشبَه بالجنان. وحتّى في ذلك اليوم الشّتوي كانت الغابةُ جميلةً بأشجارها العارية وبركِ الماء المتجمّدة التي تلمعُ كالبلّور فيها.

٢٣ ـ التاجر الأمير والأخت الأميرة

لا بُدَّ أنَّ بيتر كان يشعرُ بالغِبطة لثراء بيت أخته الذي يبدو كقصرٍ منيف. كان يَبْدو كبيرًا وأنيقًا ومهيبًا بوجود ذلك الأسدِ الحجري عِنْدَ البوابة. وعندما وصلَ الأولادُ إلى القصر كان هناك نوعٌ من الجمال السحري يَلُفُّ المكان كلَّه.

صَعِد بيتر إلى الطّابق العلويِّ يَخْتالُ كأنّه أميرٌ حقيقيٌّ وقبّلَ أختَه من جبينِها. كانت الأميرةُ هي أختَه، أمّا القصرُ السّحريُّ فهو واحدٌ من أجملِ قصورِ لاهاي وأكثرِها فخامة..

لَقِيَ الفتية كما هو متوقّعٌ حفاوَةً بالغة في القصر. فبعد أنْ تبادلوا الحديثَ الوديَّ فترةً من الوقت مع مضيفتهِم الودودة صَعِدَ بهم أحدُ الخدمِ إلى غرفةِ طعامٍ ضخمة ذاتِ ستائرَ حَمْراءَ حيثُ يَلْمَعُ السّقفُ وأرضُ الغرفةِ كالعاج.

الآن بات بوسعِهم أنْ يتناولوا البطارخ وسلطة «السلماغوندي» والسّجق والجبن والفواكه والحلويات. كيف استطاعتْ بطون هؤلاء الصبيةِ أنْ تحتوي كلَّ هذه المآكل المختلفة دفعةً واحدة؟ لم يكنْ هذا

ما أدهشَ بن فحسب. فقد أدهشه أكثر تِلك الصحونُ الفضيّة وأدواتُ المائدة الفخمة التي لم يشاهدْ مثلَها في أيِّ مكان ذَهَبَ إليه.

استمعتْ شقيقةُ بيتر مليًا لمغامراتِ الأولاد، وكيف مارَسوا التزلّج مسافةً تَزيدُ على أربعين ميلاً وكيف تمتّعوا بالكثيرِ من المشاهدِ الرّائعة في طريقهم، وكيف ضاعتْ حافظةُ نقودِهم، وكيف ألقوا القبضَ على اللص.

قالت السيّدة تُخاطب أخاها بيتر: «والآن يا بيتر عليك أن تكتبَ في الحال إلى أصدقائِك الطيّبين في برويك وتحْكي لهم عن مغامراتِكم وتُخْبِرَهُمْ أين حطّتْ بكم عَصا الترحال. إنكم الآن أَسارى عِنْدَنا».

نَظَرَ الأولادُ بعضُهم إلى بعض مذهولين.

قال بيتر ضاحكًا: «لا أستطيعُ ذلك. يَنْبَغي أن نغادرَ غدًا عند الظهيرة». ولكن أخته ذات الشخصيةِ القويةِ أصرّتْ على بقائِهم في لاهاي لمدة يومين على الأقل.

انتقلَ الحديثُ بعد ذلك إلى سباقِ التزلّج، ووعدتِ السيّدة فان جيند بسرور أن تحضرَ تلك المناسبة. وقالت تشجّعُ أخاها: «سأشهدُ انتصارَكَ يا بيتر. فأنتَ أسرعُ متزلّجٍ عرفْتُه».

قال كارل: «آهٍ، يا سيّدتي. إنّه سريعٌ حقًّا، ولكنَّ كُلَّ فتيةِ برويك هم متزلجون جيّدون».

ضحكت السيّدة وقالتْ: «هذا ما سيجعلُ السّباق أكثرَ إثارة. وأتمنى لكلِّ واحدٍ منْكم أن يكونَ هو الرابح».

في تلك اللحظة دخلَ الزوج فان جيند الغرفة وسرعان ما شعرَ الصّبيةُ بالفرح. فقد راحَ يصافحهم بحرارةٍ واحدًا واحدًا مرحّبًا بهم بحفاوةٍ، الأمرُ الّذي أشْعرَهم وكأنهم في بيوتهم.

دعاهم فان جيند إلى جولةٍ في القصر. شَعَرَ الأولادُ وهم يتلفّتون حولَهم بذهولٍ أنّهم يَحْتاجون إلى أشهرٍ حتّى يستطيعوا أنْ يستوعبوا ما يحتويه المكانُ من تُحَفٍ وطنافس ولوحات. وراحَ مضيفُهم يحدّثهم مطوّلاً عمّا تَحْمِلُهُ بعض اللوحات الأصليّة التّاريخية من مَعانٍ، والتي تُسجِّل تاريخَ معاركَ أو أحداثٍ مهمّةٍ جَرَتْ في البلاد. وكان متحدّثًا بارعًا، واستطاعَ أن يسحرَهم بثراءِ معلوماتِه وطلاوةِ حديثِه.

بعد هذه الجولةِ الطّويلةِ والسّاحرة دَعاهُمُ السّيد فان جيند إلى أن ينالوا قِسْطًا من الرّاحة في الطّابق العلويّ بعد عَناءِ يومٍ طويل. هذه المرّةَ لم يُحْشَرِ الأولادُ في غرفةٍ واحدة ذات ثلاثةِ أسرّة فَحَسب، بل كانَ لكلٍّ مِنْهم غرفةُ نومٍ مستقلّة فاخرةُ الرياش.

وفي صبيحةِ اليوم التالي كان بيتر أولَ المستيقظين لأنّه كان يَعْرف جيّدًا عاداتِ صهرِه الدقيقة. وكان حريصًا على ألاّ يستغرقَ أحدُهم في النّوم أكثرَ مما يَنْبغي. وكانت المهمّةُ العسيرةُ بالنّسبة لَهُ هي إيقاظُ جاكوب بوت. واستطاعَ مع بن أن يشدَّهُ من سريره وأن يوقِظَهُ أخيرًا.

فيما كان جاكوب يرتدي ملابِسَه راحَ بيتر يخطُّ رسالةً إلى رفاقه في «برويك» يُخْبرهم بأنَّ الجميع وصلوا سالمين إلى لاهاي. وطلبَ في الرسالة من أمّه أنْ تُخْبِرَ هانز برينكر بأنَّ الدكتور بويكمان لم يصلْ إلى ليدن بعد. وقال لها إنّه سيحاول للمرّة الثالثة مقابلةَ ذاكَ الرجل في طريق العودةِ إلى ليدن. وكتب بيتر في رسالتِه إلى أمّه: «تعرفين يا أمّي أنّني كنتُ دومًا أعتبرُ منزل أختي باردًا وموحشًا بعضَ الشيء، ولكنّني أؤكّد لكِ أنّه لمْ يعدْ كذلك الآن. وأختي تقول إنّ مجيئَنا قد أشاعَ الدفءَ في المنزل طوال الشتاء. أما صهري فان جيند فقد كان لطيفًا جدًّا معنا جميعًا. وقال إننا جعلناه يشعر أنه بحاجة إلى بيت يَعْمرُه الأولاد. لقد وعدَنا بجولة نركب خلالها خيولَه المُطَهَّمَة..».

شعرَ الأولادُ في ختام زيارتهم لقصر شقيقة بيتر أن ما رأوه خلال ذَيْنِكَ اليومين في لاهاي يحتاجُ إلى مجلَّد ضخم حتى يُحيطَ بوصفه.

كان معرضُ اللوحات الفنية المعروفُ باسم «موريتس هيوز» واحدًا من أهم المعارض في العالم. في هذا المعرض أمضى الفتيةُ قرابةَ ساعتين غنيّتَين بالمتعة والدهشة. وفي الجناح الملكي من هذا المعرض خيِّل للصبية أن اليابان قد وَضعت كلَّ كنوزها بين جدران ذلك الجناح. وقال أحدهم: «لعل زيارة هذا الجناح تُغني عن زيارة اليابان نفسها!»

وظلوا يتنقّلون من جناح إلى آخر ويتأمّلون طويلاً ما يحتوي كلُّ



واحد منها من نفائس. فبعد الجناح الياباني كان ثمة جناحٌ لألعاب الأطفال، وآخر خاصّ بعجائب الصين ونفائسها.

وفيما كانوا يتجوّلون في المدينة لفت نظرَ بن أن الطرق الجانبية هنا تختلف عن نظيرتها في إنكلترة، إذ لا يوجد هنا أرصفةٌ للمشاة. ولكنّ الطرقَ جميعًا كانت نظيفة ومستوية. وجميع المرْكَبات تجري في المسارات المحددة لها. وقد لفت نظر بن أيضًا كثرةُ عدد الزلاجات والعربات الخاصة بنقل الأمتعة. واقتنع بن بأنّ لاهاي بشوارعها الجميلة وحدائقها العامة التي تظلّلها أشجار الدردار الباسقة لهي مدينةٌ عظيمة. والأزياءُ السائدة هنا لا تختلف عما هو دارج في باريس أو لندن. وكانت أذناه كثيرًا ما تَسْعَدان بالتقاط كلمات إنكليزية هنا وهناك. ورغم اختلاف المحالّ التجارية عن مثيلاتها في شارع أوكسفورد ومنطقة ستراند بعضَ الشيء، فإنّها غالبًا ما كانت تتضمن إعلانات تفيد بوجود مَن يتكلم الإنكليزية داخلها، وبوجود مقاييس إنكليزية للملابس فيها.

انتهى التجوال... وكذلك انتهت زيارةُ الصِّبية لاهاي. لقد أمضوا فيها ثلاثة أيام سعيدة بلياليها عند عائلة فان جيند. ومن الغريب أنهم طوالَ هذه الأيام الثلاثة لم يكنْ لديهم أيُّ مُتّسعٍ من الوقت كي يمارسوا متعةَ التزلج.

٢٤ ـ طريق العودة

صبيحةَ يوم الإثنين، وكان يومًا مشرقًا، ودَّع الأولادُ مُضيفَيهما الكريمين تمهيدًا لرحلة العودة. توقف بيتر طويلاً عند البوابة، فقد كان لديه ولدى شقيقته كلماتٌ كثيرة يتبادلانها قبل الفراق.

هزَّ الموقف مشاعر بن الذي أخذ يفكر بأن لحظات الوداع هي واحدة لدى كلِّ الشعوب. وأن قبلةَ أخته جيني عند وداعه في بريطانيا شبيهةٌ بقبلة السيدة فان جيند لشقيقها بيتر. وحظي لودفيغ بقبلة وداع أيضًا من السيدة فان جيند، وقبَّلَتهُ ثانية فوق جبينِهِ قائلة: «وهذه لأمك!»

اتجه كلٌّ من كارل وجاكوب إلى القناة. وكانا سَعيدين بالعودة إلى التزلّج ثانية، وتوّاقَين للغاية لعودةٍ سريعة إلى برويك. حتى بن ولامبرت اللذان كانا واقفَين عند زاوية الشارع قد شعرا بنفاد الصبر. ولكنّ القائد انضمّ إليهما أخيرًا واتجهوا جميعًا في الحال إلى القناة لينضموا إلى بقية المجموعة.

صاحَ لودفيغ: «أسرع يا بيتر.. فنحن نكاد نتَجمَّد!» وتابع متظاهرًا بالغضب: «لا بد أن نصلَ إلى بيوتنا في وقت ما من هذا العام».

صاحَ بيتر: «والآن أيُّها الرفاق! أمامنا طريق واضح! سوف نتخيّلُ أنه سباق كبير. هل أنتم مستعدّون؟ واحد.. اثنان.. ثلاثة.. انطلاق!»

لم يجرِ بينهم أيُّ حديث يذكر في نصف الساعة الأول. فقد كانوا منهمكين بالتزلّج ينطلقون بسرعة البرق. وكان كلٌّ واحد منهم يبْذِلُ قُصارى جهدِهِ حانيًا ظهره فاتحًا عينيه. وعندما صاحَ فيهم الحرّاسُ كي يخفِّفوا من سرعتِهم قليلاً، كان اندفاعُهم أقوى من أن يكبحوا جماحَه. وبعد بضعِ دقائق استطاعَ جاكوب أن يُبَطِّىءَ قليلاً من سرعتِه، وتبِعَهُ لودفيغ ثم لامبرت ثم كارل. وسرعان ما توقفوا قليلاً كي يلتقطوا أنفاسَهم.

وأخيرًا وجدوا أنفسَهم يحدِّقون في بيتر وبن اللذين استمرّا يتسابقان في التزلّج سريعًا غير عابئين بشيء. قال كارل: «إنّها لفكرةٌ ذكيّةٌ أن توقّفنا قليلاً لنُصيبَ شيئًا من الراحة. والآن لنتابعْ زملاءنا».

وانطلقَ الأولاد صامتين ليلْحقوا برفاقهم.

كان كارل سعيدًا في قرارةِ نفسِهِ بأن يلحق ببيتر وبن، وشعر أنّه يستطيع بسهولةٍ أن يكون الرابح. كان سريعًا جدًّا في التزلّج وإن كان يفتقرُ إلى الرشاقة. أما بن فكان ينظرُ إلى بيتر بمزيجٍ من الإعجاب والدّهشة مع اقترابِ الفِتية مِنْه. وقال لَه بالإنكليزية: «أنت طائرٌ ممتاز فوق الجليدِ يا بيتر فان هولب. أنتَ أولُ إنسانٍ يُمكنه أن يسبقَني في سباق عادل، أقولُها بصدق»! انحنى بيتر، وقد فهِمَ كلَّ كلمة قالها له بن بالإنكليزية، انحناءة امتنانٍ لمجاملة بن له.

٢٥ ـ فتية وفتيات

في الوقتِ الّذي وصلَ فيه الفِتية إلى قريةِ فورهوت التي تقعُ بالقربِ من القناة الكبرى عند مُنتصَفِ الطريق تقريبًا ما بين هارلم ولاهاي كان عليهم أن يتوقّفوا للتّشاور. فالرّيحُ التي كانت مُعتدلةً في البداية قد اشتدّتْ كثيرًا بحيثُ باتَ من المتعذّرِ التزلُّجُ في مواجهتِها.

قال لودفيغ: «من العبثِ أن نحاولَ مواجهةَ ريحِ عاصفةٍ كهذه. إنها تجزُّ الرقبةَ مثل السكين!»

قال كارل الذي كان عريضَ المنكبين مثلَ ثورٍ صغير: «اسكتْ. أنا من أنصار المتابعة».

تدخّل بيتر قائلاً: «في هذه الحالةِ يَنْبَغي أن نستشيرَ الأفراد الأضعف بِنْيَةً في المجموعةِ لا الأقوى».

كانت فكرةُ قائدِ المجموعة صحيحةً ولكنها لم ترقْ للسيّد لودفيغ الّذي رَدَّ بسرعة: «من هو الضعيف؟ لستُ أنا. ولكنّ الريحَ أقوى من أيِّ واحدٍ منّا، وآملُ أنْ تتوافقوا جميعًا على الإقرارِ بذلك!»

وسرعان ما هبّتْ عاصفةٌ شديدةٌ كادتْ تلقي بالقوي كارل أيضًا، وتخنقُ جاكوب وتطيحُ بلودفيغ.

صاحَ بيتر: «لقد بُتَّ الأمر. اخلعوا زلاجاتكم. سنسيرُ إلى فورهوت».

في فورهوت وجدوا نَـزْلاً صغيرًا ذا ساحةٍ كبيرة حولَه. وكانتْ هذه السّاحةُ الداخلية مغطاةً جيّدًا. ولكنّ الريحَ كانت مزعجةً حتّى في ذلك المكان المسقوف.

في تلك الليلةِ نام بيتر ورفاقُه بعمق. لم يكن ثمةَ لصٌّ متسلّل يأتي ليقضَّ مضجعَهم. وفي الصّباحِ التهموا إفطارَهُم الشهيّ بسرعة، حتى إنّ مالكَ النَّزلِ دُهِشَ مَذْعورًا لِما رأى، وسألَهم إلى أيّ بلدةٍ يَنْتَمون، وظنَّ أنَّ أهلَ برويك يجوِّعون أولادَهم!

هدأت الرّيح لحسن الحظ، وانقشعتِ الغيوم خلفَ البحرِ، وبدتْ بعضُ أماراتِ الثلج، ومع هذا فقد كان الطقسُ جميلاً.

كان التزلّج إلى ليدن أشبه بلعبةِ أطفال بالنّسبة إليهم. وفي ليدن توقّفوا قليلاً، فقد كان على بيتر أن يقومَ بمهمّةٍ في فندق «النسر الذهبي». وتركَ المدينةَ مُبْتَهجًا، فالدكتور بويكمان كان في الفندق، وقَرأ رسالة هانز، وغادرَ باتجاه برويك. ولكن صاحب النَّزْل شكّك في أنْ يكون الدكتور بويكمان قد ذهَبَ إلى برويك لهذه الغاية لأنّه سَمِعَ أنّه ذهبَ لعيادةِ امرأة غنيّةٍ أُصيبَتْ بحادثٍ مفاجىء!

لم يكن ثمة كثيرٌ من النّاس فوق القناةِ في ذلك اليوم ما بين ليدن وهارلم. وعندما اقتربَ الأولادُ من أمستردام وجدوا أنفسَهم وسطَ

ازدحام شديد. فقد كانتْ كاسحاتُ الجليدِ الضّخمةُ تَعْملُ لأوّل مرّة في ذلك الفصل.

عَبَروا واي وباتوا فوقَ قناة برويك! كان لامبرت أوّلَ من وَصَلَ إلى بيته. وَدّع لامبرت رفاقَه قائلاً: «لقد نِلْنا أعظمَ مُتْعَةٍ في هولندة!»

ـ «ونحن كذلك، وَداعًا يا فان موينين».

وودّعه بيتر قائلاً: «تذكّر أنّ الدروسَ تَبْدأ غدًا!».

ـ «أعلمُ ذلك، إنّ إجازتنا قد انتهتْ، وداعًا مرّةً أخرى».

ـ «وداعًا».

أصبحتْ برويك على مَرْمَى النّظر. يا لهُ من لِقاء! فقد كانتْ كاترينكا فوق القناةِ، وهيلدا كانتْ هُناك أيضًا. شَعَرَ كلٌّ من كارل وبيتر بالسّعادة للقائهما. وكانتْ ريكي أيضًا هناك. وأسرَعَ كلٌّ من لودفيغ وجاكوب لمصافحتِها حتّى كاد أحدُهما يصطدمُ بالآخر لشدّة شوقِه إليها. ولا شكَّ أنَّ كاترينكا وهيلدا وريكي كنّ سعيدات بدورِهن للقاءِ أصدقائِهن.

لقد عادَ الأولاد سالمين وفي صحّةٍ جيّدة، وكان كلُّ شيء في منازلهم على ما يرام.

ولكنَّ المشكلةَ هي في حلول صبيحةِ اليوم التالي! ما أزعجَ رَنينَ أجراس المدرسة عندما يكون المرءُ تَعِبًا!

٢٦ ـ الأزمة

فلندع الصّبية فيما هم فيه ولنرَ ماذا يجري في كوخ آل برينكر.

هل يُعْقَل أنَّ غريتل ووالدتها لم تتحرّكا منذ رأيناهما آخر مرّة؟ وأنَّ الرَّجُل المريضَ لم يتحرّكْ ولا حتى حركةً واحدةً؟ ها قد مرَّت أربعةُ أيّام ولا تزالُ الأسرة تجتَرُّ أحزانها، كما كان حالُها من قبل. بل لعلَّ الأمرَ قد اختلفَ قليلاً. فرالف برينكر أشدُّ شحوبًا، ولكنَّ الحمى قد فارقَتْهُ، وإنْ كان لا يزالُ لا يعي كلَّ ما يدورُ من حوله.

كان الدكتور بويكمان في كوخِهم المتواضع يتحدّث بلهجةٍ خافتةٍ إلى شابٍّ قويٍّ كان يستمعُ إليه بإصغاء. وكان هذا الشابُّ تلميذَ الدكتور بويكمان ومساعدَهُ. وكان هانز هُناك أيضًا واقفًا أمامَ النّافذة باحترامٍ مُنْتَظِرًا أن يبادِرَهُ أحدُهما بالحديث.

قال الدكتور بويكمان يخاطبُ مساعدَه: «أترى يا ڤولينهوفين، إنّها حالةٌ واضحةٌ من حالات...». ولفظ كلمة باللاتينية لم يستطعْ هانز أن يفهمَ مَغْزاها. وتابع بويكمان: «لعلّها تُشْبِه حالَةَ ريب دونديردانك، لقد سقطَ من علٍ من إحدى طواحينِ الهواء، وبعد الحادثِ أصيب

الرجلُ بالبَلَه، وظلَّ عاجزًا مِثْلَ هذا الرجل الراقِد في السّرير ويتأوّه مِثْلَه. وقد أجْرَى لَهُ صديقي فون شوبيم عمليةً جراحيةً، واكتشف وجودَ كيسٍ أسود صغير تحت الجمجمة، كان يضغط على الدماغ، ذلك كان سبب المشكلة، وقد استطاع صديقي فون شوبيم أن يزيلَهُ، وكانت عمليةً رائعة!»

سألَ المساعدُ أستاذَه: «هل تعتقدُ أنّ من الممكنِ إنقاذَ هذا الرجل المسكين الممدّد على السرير؟»

تمتمَ الطّبيبُ قائلاً: «بالتّأكيد. . . آملُ ذلك».

قال المساعد: «إنْ كان هناك من يستطيعُ ذلك في هولندة، يا سيّدي، فهو أنت!»

هنا أشارَ الطّبيبُ إلى هانز كي يقتربَ وراحَ يَشْرَحُ لَهُ وضعَه، كما شَرَحَ له ما يَنْبغي عملُهُ كي يتمَّ إنقاذُ المريض.

أصْغى هانز بانتباهٍ واضطرابٍ معًا وهو يُلْقي بنظراتٍ سريعةٍ قلقةٍ نحو سريرِ والدِه. وأخيرًا سألَ الطّبيبَ بصوتٍ هامسٍ مرتعش: «هل ستودي العمليةُ بحياتِه يا سيّدي؟»

ـ «رُبّما يا صغيري. ولكن لديَّ إيمانٌ عميقٌ بأنّها ستكون السببَ في شفائه». وتابع الطّبيبُ فقال: «لا بُدَّ من إجراءِ عمليةٍ كبيرة، ومن الممكن إجراؤها ببساطة، وسؤالك هو: هلْ يمكن أن تودي بحياته؟»

أجاب الغلام متخوّفًا: «هذا السّؤالُ يَعْني كلَّ شيء بالنّسبةِ إلينا يا سيّدي». ونظر الدكتور بويكمان إلى هانز بخوفٍ مُفاجيء قائلاً: «أنتَ على صواب حقًّا يا ولدي. لقد كنتُ أحمقَ. أنتَ ولدٌ طيّبٌ».

وعادَ الولدُ يَسْأَلُ: «هل يموتُ يا سيّدي إذا استمرَّ مَرَضُه؟»

ـ «هِمْ! الأمرُ يزدادُ سوءًا في كلِّ لحظة، فالحادثُ الّذي أصيبَ بِهِ قديمٌ. وثَمَّةَ ضغطٌ على الدّماغ وهذا ما يجعلهُ يَغيب عن الوعي هكذا».

هانز: «والعمليّةُ قد تُنْقِذُهُ. متى نعرفُ ذلك يا سيّدي؟»

ويجيبه الدكتور بويكمان بنفادِ صبر:

ـ «لنتحدَّثْ مع والدتِك يا بنيّ، ودَعْها هي تتّخذ قرارَها، إنَّ وقتي ضيّقٌ».

اقتربَ هانز من أمِّهِ بشيءٍ من التهيّبِ والتردّد. قالَ لها: أريدُ أن أتحدّثَ إليكِ يا أمّي.

طلبَ هانز إلى أختِه أنْ تبتعد، فأطاعت. جلستِ الأمُّ وابنُها قربَ النّافذةِ، وراحَ هانز يحدّثُها باهتمام وبصوتٍ منخفض كي لا تسمعَهُ أختُه.

وعندما توقّفَ هانز عن الكلام، التفتت الأمُّ إلى زوجها الراقد على السرير بلا حَراك ونظرتْ إليه نظرةً يَعْصِرها الألمُ، وجثتْ على

ركبتيها إلى جانبِ مرقده. أما المسكينةُ غريتل فلم تكنْ تَدْري ما يدورُ حَوْلَها، وكانتْ تَنْظر إلى أخيها نظراتٍ حائرةً علَّه يقولُ لَها شيئًا.

ما إنْ نَهضَت السّيدة برينكر حتّى سألَها الدّكتور بويكمان باقتضاب: «حسنًا يا سيّدتي هل نجري العمليّة؟»

فسألته بصوت مرتعش: «هل ستؤلِمُهُ يا سيّدي؟»

ـ «لا أستطيعُ القول، رُبّما لا، هل نقومُ بها؟»

ـ «قلتَ يا سيّدي إنها قد تَشْفيه، ولكنّكَ قلتَ لولدي إنّها ربما.. ربما تودي بحياته».

ـ «نعمْ يا سيّدتي فالمريض تحتَ العمليّةِ يُمكن أن ينتهي أجلُه، ولكنّنا نأْمُلُ أنْ نُثْبِتَ العكس.. هيّا يا سيّدتي إنَّ الوقتَ يُدْرِكُنا، قرِّري: نعم أو لا؟»

اقترب هانز من أمِّهِ برقّةٍ وقالَ لها هامسًا: «إن السيّدَ يَنْتَظرُ الجواب». التفتت الأمُّ إلى ولدِها مُناشدةً إياه: «آه يا هانز ماذا أقول؟»

أجابَها هانز وهو يَحْني رأسَه: «قُولي ما يُنيرُ الله بِهِ قلبكِ».

توجّهتِ الأمُّ إلى ربِّها بالدّعاءِ متوسِّلةً إليه أن يهديَها إلى الرأي السديد. وسرعان ما لبّى الله توسُّلاتِها، فالتفتت المرأةُ إلى الطّبيبِ، وقالت:

ـ «حَسنًا يا سيّدي أنا موافقة».

لم يتمالك الطّبيبُ مشاعِرَه ولم يستطعْ أنْ يمنعَ دمعةً ذرفَتْها عيناه. في تلك الأثناء كانتْ غريتل تترّقبُ بخوف. وعندما رأت الطّبيبَ يفتحُ محفظَته الجلديّة ويُخْرِجُ مِنْها آلةً بعدَ أخرى خشيتْ أن يقعَ لوالدها مكروهٌ واقتربتْ من أمِّها قائلة:

ـ «آه يا أمّي هل سيُصيب أبي مكروهٌ؟ هل سيقتلونَه؟»

صاحت السيدةُ برينكر وهي تنظرُ إلى ابنتها خائفةً: «لا أعرفُ يا صغيرتي. لا أعرف!» قال الطبيب بلهجةٍ واثقة: «لن يحدثَ لَهُ مكروه». وألقى في الوقتِ نفسِه نظرةً على كلٍّ من غريتل وهانز وأمِّهما. وطلبَ إليهم أن يغادروا باستثناءِ الفتى. وأمامَ توسلاتِ السيّدة برينكر وافقَ الطّبيبُ على بقائِها.

وخرجتْ غريتل.

حَمَلَ الطّبيب دورقًا من الماءِ ووضعَهُ إلى جانبِ السّرير، ثم التفتَ إلى هانز قائلاً: «هل أستطيعُ الاعتمادَ عليك يا فتى؟»

هَزَّ هانز رأسَه بالإيجاب.

وبَدَأَ الطّبيب يُعْطي تعليماتِه لهانز وأمِّه ومساعده. أما الصّغيرةُ غريتل التي كانتْ تَنْظُرُ إليْهم من شقوقِ البابِ فقد انتابَها الرعبُ، ولم تعدْ تستطيع أن تتحمَّل ما تَرى عيناها، وولّتْ هاربةً من المنزل.

٢٧ ـ غريتل وهيلدا

كانتْ ساعةُ الفرصةِ المدرسيّة. وما كادَ الجرسُ يُقرع حتّى كانت القناة قد غصّت بالفتيةِ والفتياتِ واكتستِ الحيويّة والضّجيج. وراحَ عشراتُ الأولاد يتزلّجونَ بمرحٍ ويُروّحون عن أنفسِهم بالغِناء والصياحِ والضحك. وفي غمرةِ الفرح يصيحُ أحَدُهم:

ـ «ما هذا؟»

ويصيحُ عشراتٌ متسائلين: «ماذا؟ أين؟»

ـ «ألا ترون ذلك الشّيء الدّاكن الذي يتحرّكُ بالقُرْبِ من بيتِ الأبله؟»

وراحوا يتحزّرون عمّا يكون ذلك الشّيء. وعندما عَرَفوا أنّها المسكينةُ غريتل أخذوا يَسْخَرون مِنْها. بَيْدَ أنَّ غريتل كانتْ في شغلٍ شاغلٍ عَنْهم. كانت تفكّر بأبيها المسكين وما يعانيه من آلام، وماذا يُمْكن أن يفعلَ أولئكَ الغرباء في الدّاخل بِهِ. وكانتْ تشعر بالرّعب من فكرةِ أنْ يُقْدِمَ هؤلاءِ على إيذائِهِ. وقالت تخاطبُ نفسَها وهي تشهَقُ: «لا، لا يُمكن أنْ يفعلوا ذلك، فأمّي وهانز هناك، وسوف يعتنيان به، لكمْ هُما شاحبان، حتّى هانز كان يَبْكي!» وتابعتْ تفكّر: «لماذا أبقاهُ

ذلك السيّد الفظّ وأخرَجَني أنا بعيدًا؟ يا ويلتاه ماذا أفعلُ إذا حَدَثَ مكروهٌ لأبي وهانز وأمي؟» ودفنت الفتاةُ وجهها بين ذراعيْها، وهي ترتعشُ من البرد، وراحتْ تَبْكي بحرقة.

لقد تحمّلت الطّفلةُ المسكينةُ طَوالَ السّنواتِ الأربعِ الماضية أكثرَ بكثيرٍ ممّا تطيق. وكانتْ تَعْرِفُ أنَّ أمرًا ما مُزْعجًا وغامِضًا يَجْري في تِلك اللحظة، أمرًا مزعجًا إلى درجةِ أنَّ هانز لم يخبرْها به. وراحتْ تُسائِلُ نفسَها: لماذا لم يخبرها هانز؟ يا للعار. إنه والدُها كما هو والد هانز. إنها ليستْ طفلة. إنّها أخذتْ ذاتَ مرّةٍ سكّينًا حادّة من يدِ والدها. بل إنّها أبعدتْهُ عن أمِّها في تلك الليلة الرهيبة عندما لم يستطعْ أخوها الأكبر منها أن يُساعدَها. لماذا إذًا تُعامَل وكأنّها لا تستطيع أن تفعلَ شيئًا؟

وفي غمرةِ أحزانِها وهواجِسِها ربّتتْ يدٌ حَنونة على كتفِها. ورفعتْ غريتل رأسَها ببطء. كانت شديدةَ النّعاسِ إلى حدٍّ أنّها لم تَدْهَشْ لرؤية هيلدا فان غليك وهي تَـنْحني عليها وتنظُر إليها بحنان. ربما ظنّتْ نفسَها في حلم. ولكنها استفاقت تمامًا وأدركتْ أنّها ليست في حلم عندما سمعتْها تُناديها وتطلبُ مِنها أن تستيقظَ وهي تهزُّها برقّة. قالت غريتل بخجلٍ وهي تَفْرُكُ عينيها بيديها: «كنتُ نائمة».

قالت هيلدا ضاحكةً: «حقًّا كنتِ غارقةً في النّوم، ولكنّكِ أفضل». مالتْ عليها هيلدا وقالتْ لها: «غريتل استمرّي في الحركة وسرعان ما ستشعرين بالدّفء، والآن دَعيْني آخذكِ إلى الكوخ».

- «كلاّ كلاّ يا سيّدتي. السيد هناك وهو الذي طرَدَني».

دُهِشَتْ هيلدا ولم تجدْ بُدًّا من أن تستوضحَها: «حسَنًا يا غريتل، حاولي أن تمشي بسرعةٍ أكبر، حرّكي يديكِ هكذا.. أعتقدُ أن السّيدَ سيسمحُ لكِ بالدّخولِ الآن بالتأكيد، هل والدُكِ مريضٌ جدًّا؟»

صاحتْ غريتل وهي تبكي ثانيةً: «آه يا سيّدتي، إنّه يموت، عِنْدَه اثنان الآن، وأمّي تكادُ لا تَنبِسُ ببنتِ شَفَةٍ هذا النّهار. هل تسمعين صوتَ أنينِه يا سيّدتي؟» وأضافتْ وقد انتابَها رعبٌ مفاجىء: «إنّ أزيز الهواء يَجْعَلُني لا أستطيع سماع أي شيء. رُبّما يكونُ ميتًا! بودّي لو أسمَعُه!»

أصاخَت هيلدا السّمع. كان الكوخُ قريبًا جدًّا ولكن لم يكن شيءٌ يُسْمعُ. هاجسٌ ما جعَلَها تَعتقدُ أنَّ غريتل على حق. وأسرعتْ إلى النّافذة. أرادتْ في البداية أن تختلسَ النّظرَ من ثقوبِ النّافذة، ولكنّها أحجَمَتْ عن ذلك، واكتفتْ بأنْ قالت لغريتل: «يُمْكِنُكِ أن تنظري. إنه نائم فحسب!»

كانتْ شفتا غريتل تَرْتَعِشان. قالتْ لها هيلدا: «إنك مريضة».

أجابتْ غريتل: «كلاّ يا سيّدتي. إنَّ قلبي يَبْكي الآن وإنْ كانت عيناي لا تدمعان. ولكن لماذا تبكين أنت يا سيّدتي؟ هل تبكين من أجلِنا.. أعرفُ يا سيّدتي أنّ والدي سيتحسّنُ الآن!» وراحت تقبّلُ يَدَها ثانيةً.

هَمَسَتْ هيلدا: «هل تستطيعين أنْ تَرَيْ شيئًا؟»

- «نعم. أبي لا يَزالُ راقدًا، رأسُهُ ملفوف بالضّمادات، وجميعُ العيون مصوّبةٌ إليه.. أوه يا سيّدتي يجب أن أذهبَ إلى أمّي، هل تَدْخلين معي؟»

- «ليس الآن، فالجرسُ يُقْرَعُ، سآتي ثانيةً قريبًا، وداعًا!»

لم تجدْ غريتل الكلمات. ولكنّها ستظل تَذْكُرُ طويلاً الابتسامةَ الحنونة المُشْرِقَةَ على وجهِ هيلدا حين ودَّعتها.

٢٨ ـ اليقظة

تسلّلتْ غريتل بنعومةٍ إلى جانب أمِّها دون أنْ تجرؤ على النّظرِ إلى أحد. كان السكون التّامّ يُخيِّمُ على الغرفةِ حتّى إنّها كان بوسعها أن تسمعَ صوتَ أنفاسِ الطّبيب. كانتْ يدُ أمِّها شديدةَ البرودة. ولكنّ خدَّيها كانا مضرّجين بالحمرة وعينيها تَبْرُقان بتلهُّف.

أخيرًا حدثتْ حركةٌ فوقَ السرير.. حركةٌ خفيفةٌ للغاية ولكنّها كانتْ كافيةً لتجعلهم يتحرّكون جميعًا. انحنى الدكتور بويكمان بلهفةٍ وهو يُطلُّ برأسِه. ثم جاءتْ حركةٌ ثانية حين رَفَعَ المريضُ يدَه الشّاحبةَ ليتحسَّسَ جبينَه. كان يتحسَّسُ الضّماد. وهذا ما جَعَلَ الدّكتور بويكمان يحبِسُ أنفاسَه. ثُمَّ فَتَحَ المريضُ عينيه ببطءٍ. قال الطّبيب: «ارفعوا تِلْكَ الوِسادةَ إلى أعلى».

قفزت السيّدة برينكر مثل نمرةٍ فتيّة إلى الأمام، وأمسكتْ بيديه وانحنت عليه باكيةً تقول: «رالف رالف، يا حبيبي، تحدّثْ إليّ».

سألَها بضعف: «أهذا أنتِ يا ميتيج؟ لقد كنتُ نائمًا، مُصابًا ربما، أين الصغير هانز؟»

صاح هانز وهو يكادُ يُجَنُّ فَرَحًا: «ها أنذا يا أبي!»



صاحت السيّدة برينكر: «إنّه يعرفُنا، تباركَ اسم الله! إنه يعرفنا! غريتل، غريتل تعالي وانظري إلى والدك!»

وعبثًا ضاعتْ محاولاتُ الدكتور بويكمان في أن يجعلَهم يلْزمون الصّمت، ويبعدهم عن السرير.

وراحَ هانز وأمُّه يضحَكان ويبكيان معًا وهما يتحلّقان حولَ الرجلِ الذي استفاقَ من جديد. لم تنبِسْ غريتل ببنتِ شَفَة ولكنّها كانتْ تحدِّقُ في الجميع بسعادةٍ ودَهْشة. كان والدُها يتحدّثُ بصوتٍ خافت.

سألَ الأب: «وهل الطّفلةُ نائمةٌ يا ميتيج؟» قالتِ السيّدة برينكر: «الطّفلةُ!» ونظَرَ إليها أبوها قائلاً: «أوه غريتل! أهذه أنتِ!» ودَعا هانز إليه. قالت السيّدة برينكر: «يا إلَهي عشرُ سنواتٍ من النّوم! آه يا سيّدي لقد أنقذْتَنا جميعًا». لم يكنْ يعرِفُ شيئًا منذ عشرِ سنوات. أيُّها الولدان لماذا لا تَشْكُران السيّد؟» لم يقل الدكتور بويكمان أيَّ شيء، ولكن عندما التقتْ عيناه بعينيها أشارَ إلى أعلى. وفَهِمَ الجميعُ مَغْزى الإشارة.

راحَ الجميعُ يُتمْتِمون بآيات الشّكرِ لله. واقترحَ رالف برينكر أنْ يقرأوا بضعَ آياتٍ من الإنجيل.

قال الطّبيبُ بلهجة آمرة: «والآن يا سيّدتي لا بُدّ من الهدوءِ التّام. أتفهمينني؟ هذه حالةٌ نادرة، سأعودُه غدًا. لا تقدِّمي للمريض أيَّ طعامِ اليوم».

وانْحَنى بسرعةٍ وغادرَ الكوخ، إلى حيث كانتْ تَنْتَظِره عربتُهُ الضّخمة. خرجَ هانز خلفَه وقالَ له: «ليباركْكَ الله يا سيّدي! لن أستطيعَ أبدًا أن أكافئَك، ولكن...»

فقاطعه الطّبيب بحدّة: «بل تستطيع، تستطيع أنْ تستخدمَ ذكاءك عندما يستيقظُ المريض ثانية، هذه الثرثرةُ والضّجةُ كافيةٌ لقتلِ رجلٍ مُعافى فما بالك برجلٍ على حافة قبره؟ إذا كنتَ تريدُ لوالدك أنْ يتعافى فعليك أن تطلب إليها أن تلزم الصمت».

وانطلقَ الطبيبُ تارِكًا هانز واقفًا فاغرَ الفمِ مفتوحَ العينين.

لقيتْ هيلدا تأنيبًا قاسيًا ذلك اليوم بسببِ عودَتِها متأخرةً إلى المدرسة بعدَ الفرصة، وبسببِ عدم تسميعِها الدروس بشكلٍ جيّد.

فقد بقيتْ واقفةً بالقربِ من الكوخ حتّى سَمِعَت السيّدة برينكر تضحكُ، وسمعتْ هانز يقولُ: «ها أنذا يا والدي»! وعندئذٍ فقط عادتْ إلى مدرستِها. ولكن كيف كان بوسْعِها أن تَعيَ الدروس، وهي تفكِّر في أسرةِ برينكر بسعادةٍ غامرة!!؟

وكان الفتيةُ الخَمْسةُ أسعدَ من أسعدِ النّاس في ذلك اليوم وهم يَنْدَفِعون من مَبْنى المدرسة. كانت معنويّات بيتر مرتفعة، فقد أخبرتْهُ هيلدا بما سمعتْ عند الكوخ من كلماتِ هانز المُفْرِحة. وكان بحاجةٍ إلى مزيد من البراهين على أنّ رالف برينكر قد تَعافى. والحقّ أنّ الأخبارَ كانتْ قد انتشرتْ في كلِّ مكانٍ في الجِوار. وحَتّى النّاسُ

الذين لم يكونوا يهتمّون بعائلة برينكر، أو يَذْكُرونها بشيءٍ من السخرية أو يَتظاهرون بالشفقة، باتوا الآن يهتمّون بمعرفةِ كُلِّ شيءٍ عن تاريخِ تِلْكَ الأسرة.

أمّا هيلدا بقلبِها الطيِّب الرّقيقِ فقد كانتْ تَفيضُ سعادةً. كانتْ تريدُ أنْ تستوقفَ الطبيبَ وتسألَهُ عن سرِّ تِلْكَ المعجزة: أن يعودَ فاقدُ العقل إلى صوابِه. ولكن كلاّ. لقد سمعت السيّدة برينكر بنفسِها وهي تضحك.

إنه لأمر مُبهجٌ دومًا أن يُفْشي المرءُ الأخبارَ السّارّة والمدهشة! ولهذا ما كادَ يَحلُّ الظّلام حتى انتشرَ في القرى المجاورة أنَّ الدكتور بويكمان توقّفَ عِندَ أحد الأكواخ وأعْطى الأبله برينكر جرعةً كبيرة من دواءٍ ما، وأن الأبْلَه سرعان ما انتفضَ واقفًا على قدميْهِ، وقد استعادَ كُلَّ قدراتِهِ، وأنّه راحَ يتحدّثُ برقّةٍ إلى زوجتِهِ وولديْه..

٣٩ ـ خَطَرٌ جديد

عندما عادَ الدكتور بويكمان في اليوم التّالي إلى كوخِ أسرةِ برينكر لم يَفُتْهُ أنْ يلاحظَ بالطَّبعِ جَوَّ البهجةِ والرّاحةِ الّذي كانَ يَسودُ البيت. كان يُشعُّ مِنْهُ جَوٌّ من السّعادة. كانت السيّدة برينكر جالسةً قُرْبَ السرير وهي تَحوكُ شيئًا، فيما كان زوجُها يستمتعُ بنومٍ هانىء؛ أمّا غريتل فكانتْ تَعجِنُ خبزَ الشّعيرِ على الطّاولة عنْد الزاوية.

لم يبقَ الطّبيبُ طويلاً في المنزل. سألَ بضعةَ أسئلةٍ بسيطةٍ وبدا راضِيًا عن الأجوبةِ، وبعد أن جسَّ نَبْضَ مريضهِ قالَ: «آه، ما زالَ ضعيفًا جدًّا بَعْدُ يا سيّدتي، يَنْبَغي أن يتناولَ مُنْعِشات، تستطيعين البدءَ بإطعامِه قليلاً، ولكنْ ما ينبغي أن يتناولَهُ هو أفضلُ الطّعام وأكثَرُهُ فائدة».

أجابت السيّدة برينكر: «لدينا خبزٌ أسودُ يا سيّدي وعصيدة. وهو يتقبّلهما جيدًا».

قال الطبيب عابسًا: «ما هذا؟ ما هذا؟ لا شيء منْ هذا البتّة! يَنْبغي أنْ يتناولَ مرقَ اللحم الطّازجِ والخبزَ الأبيض المجفّف، هِمْ!

الرجلُ يبدو باردًا، زمّليه بمزيد من الغطاء، غطاءٍ خفيفٍ ودافىء، أين الصّبي؟»

ـ «ذهبَ هانز يا سيّدي إلى «برويك» للبحثِ عن عمل. سوف يعودُ سريعًا. هل لك أن تتفضّلَ بالجلوسِ يا سيّدي؟»

بَيدَ أن الطّبيبَ كانَ في عجلةٍ من أمرِه، لذا فقد انحنى لها انحناءةً سريعة واختفى قبل أن تقولَ السيّدةُ برينكر أيّة كلمة.

تركتْ كلماتُ الطبيب أثرًا غيرَ مُستحبٍّ لدى السيّدة برينكر جعلَتها تَشعُرُ بغصّة. ودخل هانز في تلك اللحظة ولاحظ التغير الذي طرأ على والدتِه. وسألها:

ـ «ما الّذي حدثَ يا أمي.. ما الذي يُزعجُك؟ هل ساءَتْ حالُ والدي؟»

استدارتْ نحوَهُ بوجهٍ مكفهرٍّ دون أن تحاولَ إخفاءَ شعورها بالأسى واليأس:

ـ «نعم إنّه يجوعُ وَيرتَعِشُ بَرْدًا كما قالَ السيّد».

قال هانز وقد شَحُبَ وجهُهُ: «ماذا يَعني هذا يا أمي؟ يَنبَغي أن نطعمَهُ في الحال، هاتِ العصيدة يا غريتل».

صاحتِ الأمُّ بأسى: «لا! قد يقتُلُهُ هذا الطّعام. هذا الطّعام الفقيرُ ثقيلٌ على معدتِه. آه يا هانز! إنَّ والدَك سيموتُ إذا أطعمْناه بهذه

الطريقة، يجبُ أن يتناولَ اللحم والحَلْوى، أوه ماذا أفعل؟ لَيْسَ لدينا قرشٌ واحدٌ في البيت».

تَغيَّر وجهُ الصغيرة غريتل. كانتْ هذه هي الطّريقةَ الوحيدة الّتي تعبّر بها عمّا يَجيشُ في نفسِها. ثم لم تلبثْ دموعُها أن انهمرتْ.

سألَ هانز: «هل قالَ السيّد إنَّ والدي يَنبَغي أن يتناولَ هذه الأشياء يا أميّ؟»

ـ «نعم».

ـ «حَسنًا لا تبكي يا أميّ، سيحصُلُ عليها، سأحْضِرُ لَهُ اللحم قبلَ أنْ يَحلَّ الظّلام، سأحضرُ لكِ غطاءً أيضًا.. لا بُدَّ أن أجدَ عَملًا في أمستردام، إذْ لا يوجدُ عملٌ في برويك، لا تخشي شيئًا يا أمي. فالأسوأ قد فات، علينا أن نفعلَ كلَّ ما في وسعِنا الآن كي يعود والدي إلى وضعِه الطّبيعي».

قالت السيّدة برينكر وهي تشهقُ وتَمْسحُ دُموعَها: «هذا صحيحٌ حقًّا!»

هانز: «طبعًا يا أمّي، هل تعتقدين أنّ الله الّذي أعادَه إلينا يمكن أن يتركه يموتُ جوعًا؟ أنا واثقٌ من أنّني قادرٌ على تلبيةِ حاجاتِ أبي كما لو كنتُ غنيًّا».

تناول هانز زلّاجتين وقبّلَ أمَّهُ وانطلق.

مسكين هانز! لقد حاولَ أن يبدو شُجاعًا أمامَ والدتِه رُغم أنّه كان مُحْبَطًا من مهمّةِ الصّباح الخائبة، ومتألّمًا مما سَمِعَهُ عن والده.

وفيما كان هانز يتزلّجُ راحَ يفكِّرُ: «ربّما هناك خطأ ما. فالسيد يعلمُ جيّدًا أنَّ اللحم ليس في مقدورنا الحصولُ عليه. ولكنَّ والدي يبدو ضعيفًا حقًّا. لا بُدَّ أنْ أحصلَ على عمل. إذا عادَ السيّد فان هولب من روتردام فثمةَ أشياءُ كثيرةٌ أستطيعُ القِيام بها. لقد طلب إليّ السيد بيتر أن أعْلِمه إذا ما كنتُ بحاجةٍ إلى مساعدة. سأذهبُ إليه في الحال».

وسرعان ما أخَذَ هانز يشقُّ طريقَه نَحْوَ منزلِ فان هولب. وفي طريقِهِ خطرت ببالِه أفكارٌ عدّةٌ. قالَ في نَفْسِه: «أبي يريدُ اللحم في الحال. ولكنْ كيف أحْصُلُ على النّقود الآن كي أشتريها لَهُ؟ سأحاول الحصول عليه، سأذهبُ في الغَد إلى أمستردام». ثم بعد ذلك خَطَرتْ بباله أفكارٌ متشائمة، ولكنه سرْعان ما نَبَذَها. وخطرَ لَهُ أخيرًا أن يبيعَ ساعتَه إذا ما اضطرَّ إلى ذلك أو يَرْهَنَها إلى أنْ يجدَ عملاً. وقال في نفسه: «ربّما من الأحسنِ أن أتشاوَرَ مع والدي حولَ هذا الموضوع». وراقتْ لَهُ هذه الفكرة كثيرًا وراح يفكِّر: «أجل لماذا لا أتحدّثُ إلى والدي؟ إنّهُ إنسانٌ عاقلٌ الآن. وقد يصحو مُرْتاحًا وفي تمامِ وعيِهِ». وراحَ يَغذُّ الخُطى عائدًا إلى البيت.

استقبلتْهُ أمُّهُ عند البابِ ضاحكةً مستبشرةً وقالت: «أوه يا هانز! لقد كانتِ السيّدة الشّابة هُنا مع خادمتِها. لقدْ أحضرتْ لنا كلَّ شيء: اللحم والحلوى والخبز.. سلّةً كاملة! ثُم أرسلَ السيّد رجلاً من المدينة يَحْمِلِ المزيد من المآكل وأغطيةَ السّرير الجيّدة لوالدك. سيكونُ في وضعٍ أحْسن الآن. بارَكَ الله فيهما!» واغرورقتْ عينا هانز بالدّموعِ وهو يردّدُ خَلْفَها: «باركَ الله فيهما!»

٣٠ ـ عودةُ الأب إلى وعيه

شعرَ راف برينكر في تِلْكَ الأمسية بارتياحٍ تامّ، وأصرَّ على أن يجلسَ قليلاً على ذلك الكرسيِّ الخشن ذي الظّهر العالي قُرْبَ المدفأة. وكان على هانز العبءُ الأكبرُ في هذه الخطوة نظرًا لثقلِ وزنِ والدِهِ، كما كان عليه أن يأخذَ على عاتِقِه تنفيذَ رغبةِ والدِهِ من دونِ موافقةٍ مُسْبَقة من الطبيب.

قال راف: «أسندوني أسندوني.. هل أصبحْتُ كبيرًا وضعيفًا أم أنَّ الحمّى جعلتْني عاجزًا؟»

قالت السيّدة برينكر ضاحكةً: «ها هو يتحدّثُ كأيِّ رجل! نَعَمْ أنتَ ضعيفٌ بسببِ الحمّى يا راف. ها هو الكرسيُّ الوثير.. اجلسْ على مهلِك. حسنًا!»

كان من الطّبيعي أن تمتلىءَ عينا راف بالدّموع الساخنة وهو ينظرُ إلى الوجوهِ المستبشرة من حولِه. فضياعُ عشرِ سنوات من عمر إنسانٍ ليس بالخسارة الهيّنة. عشرُ سنوات من الرجولةِ والسّعادةِ الأُسريّة والرّعايةِ، عَشْرُ سنواتٍ من العملِ الشريف، من التمتُّعِ بضياءِ الشمس وجمالِ الطّبيعة، عَشْرُ سنواتٍ من الحياةِ الممتعة.

كانتْ غريتل الصَغيرةُ تَنْظرُ إلى أبيها بحنانٍ، وهي تراهُ يَبْكي. أحسّتْ بحبٍّ شديد له واندفعتْ نحوَه لتطوِّق عُنُقَهُ بذراعيها. قالتْ لَهُ بتوقٍ وحنان وهي تضع خدَّها على خدِّه: «لا تبكِ يا أبي الحبيب، فنحنُ جميعًا حولك».

- «ليُباركْكِ الله يا بنيّتي». وراحَ يُقبِّلها عشراتِ القُبل.

رفعَ الأبُ رأسَه وراحَ يتكلّمُ بلهجةٍ مَرِحة، بعد أنْ وضعَ رأسَ غريتل بين يديه: «يجب أن أعرفَها يجبَ أن أعرفَها. العينان الزرقاوان نفسهُما والشفتان نفسهُما. وتِلكَ الأنشودةُ الصّغيرةُ الّتي كانت تغنّيها حتّى قبلَ أنْ تَمْشي». وتابعَ وهو يتنهّدُ: «كانَ هذا من زمنٍ بعيد.. بعيدٍ جدًا. كلُّ شيءٍ مَضى الآن». قالتِ السيّدة برينكر: «ليسَ الأمرُ كذلك يا عزيزي. هل يُمْكن أن أدعَها تَنسى ذلك؟»

وطلبتْ إلى غريتل أن تُغنّيَ لَهُ الأغاني القديمة الّتي حَفظتْها. وانسابَ صوتُ غريتل وهي تَشْدو انسيابَ رائحةِ البخور.

والتفتَ الأبُ بعدَ ذلك إلى ولدِهِ هانز وسَألَهُ: «هل كنتَ تُساعِدُ أمّكَ يا بنيّ طوالَ تِلك السنوات؟»

أجابتْ عَنه السيّدة برينكر قائلة: «نعَمْ وبشجاعة».

تمتم الأب وهو ينظرُ نظرةً حائرةً إليْهم جميعًا: «كم مَضى مُنْذُ تِلْكَ الليلة عندما اندفعتِ المياه؟.. ذلك آخرُ شيءٍ أذكرُه».

- «قلنا لك الحقيقة يا راف، ما حدثَ جرى مُنْذُ عَشر سنوات».

- «عشرِ سنواتٍ.. قبلها وقعتُ.. وهل لازَمَتْني الحمّى مُنْذُ ذلك الوقت؟»

لم تَعرف السيّدة برينكر كيفَ تجيبُه. هل تُخْبرهُ بكلِّ شيء؟ هل تُخْبِرهُ أنّه أُصِيب بالبَلَه.. أُصيبَ بمسٍّ في عقلِه؟ لقد طلبَ إليها الطّبيب أن تتجنّبَ كُلَّ ما مِنْ شَأنِهِ أنْ يُزْعجَ المريض. ودُهِشَ كلٌّ من هانز وغريتل عندما سَمِعا أمّهما تُجيب:

«عِندما يسقطُ رجلٌ بدينٌ مثلُك يا راف على رأسِه فمنَ الصّعبِ أنْ نَعرِفَ ما نَجمَ عن ذلك. ولكنّكَ أنت الآن، والحمد لله، بألفِ خير!»

أجابَ راف بعدَ لحظةِ صَمْتٍ: «حَسَنًا يا سيّدتي.. ولكنّ رأسي أصبحَ مثلَ دولابِ المِغْزَل، ولن أعودَ إلى صوابي حتّى أرجعَ إلى العملِ في الحواجزِ الخرسانية، متى تعتقدين أنّني سأعودُ إلى العمل؟»

قالت السيّدة وقد انتابَها شيءٌ من الخوف ممّا راودهُ من أفكار: «يَنْبَغي أن نعيدَه إلى الفِراش يا هانز. هيا!»

وحاولا أن يرفَعاه من الكرسي، ولكنه لم يكنْ مستعدًّا لذلك بعد. قال لهم: «ابعدوا عني. هل يُمْكن لرجلٍ أن يُرْفَعَ مثل قطعةٍ من الخشب؟ أُقْسِم لكم أنّني سأعودُ إلى العمل في السّدود ثانية. هناك

بعضُ الأصدقاءِ الأوفياءِ ينتظرونني: مثل جان كافوسين والشاب هوغز فليت. . .».

نظر هانز إلى أمّه نظرةً ذاتَ مَغْزى. فالشّابُّ هوغز فليت قد ماتَ مُنذ خمس سنوات، أما جان كافوسين فمسجونٌ في أمستردام!

وما لبثَ هانز وأمُّه أن حَمَلاه إلى سريره.

٣١ ـ الغيلدرات الألف

لم يفكّر أحدٌ في كوخِ أسرة برينكر المتواضع تِلك الليلة بالعَشاء اللذيذ المخبأ بالقُرب منهم. قالت الأم تخاطب ولديها: «لقد استمتع بالعشاءِ جيّدًا ونامَ بعد ذلك مباشرة». شعرت الأم بعد قليل أن ابنَها هانز شاردُ اللب يفكّر في أمر ما، فسألته: «بماذا تفكر؟» وتابعتْ تقول بلهجة مختلفة: «لا فائدة من التفكير. . لقد كنتُ أفكّرُ في الشيء نفسِه منذ زمن بعيد. حسنًا . . ليس من الخطأ أن نحاولَ معرفةَ شيءٍ ما عن الغيلدرات الألف ولكن دون أن نتحدّث إليه مباشرة في ذلك. من الواضح أنّه لا يعرفُ شيئًا عنها».

نظر هانز إليها بقلقٍ خائفًا من أن يثيرَ غضب أمّه التي تغضب عادةً عندما يجري الحديث حولَ النّقودِ الضائعة. ولكنها بقيتْ صامتةً هذه المرة وهي تُحدّق في النّافذة.

ندَّ صوتٌ خافتٌ من السرير يقولُ: «ألف غيلدر. . أنا متأكِّدٌ أنّها كانتْ ذاتَ فائدةٍ عظيمةٍ لكم يا زوجتي طَوال السّنواتِ الماضيةِ وأنا مُقْعد».

جفلتِ المرأة المسكينة. فقد قضتْ هذه الكلمات على الأمل الذي كان يُداعِبُ خيالَها منذ أمدٍ بعيد.

قالت متلعثمة: «هل أنتَ صاحٍ يا راف؟»

ـ «نعم يا ميتيج، أنا أشعرُ بتحسّن، كنت أقول: إن نقودَنا كان لها فائدةٌ جلّى. هل فُقِدتْ طوال تلك السنين؟»

ـ «أنا لم آخذها يا راف».. وأرادتْ أن تُكْمِلَ وتَحكي القصة كلَّها له.. ولكن هانز رفع إصبعَه محذّرًا إياها من الاسترسال، وقال هامسًا: «تذكّري ما قاله الطّبيب حول عدمِ إزعاج والدي أو إثارةِ قلقه».

قالت له بصوت مرتعشٍ: «تحدّث أنت إليه يا ولدي».

أسرعَ هانز نحو السّرير. وانحنى على والدِه قائلاً: «أنا سعيدٌ بتحسّنك. وغدًا ستستعيدُ كاملَ قوّتِك».

وعادَ الوالد يسألُ هانز السّؤالَ نفسَه حولَ النقودِ، لأنّه لم يسمعْ جوابَ والدته. أجابت السيدةُ برينكر بألمٍ شديد: «قلتُ يا راف إنّها أُنفقت كُلُّها».

ـ «حسنًا يا زوجتي لا تغضبي لذلك، مبلغُ ألف غيلدر لا يُعدُّ مبلغًا كبيرًا في عشرِ سنوات، خصوصًا وأن لدينا أولادًا. ولكنه ساعدَكم على أن تعيشوا في راحة. هل عانيتُمْ شيئًا؟» لم تتمالك السيدة برينكر نفسَها من البكاء. تأثّر الرجلُ لبكاءِ زوجته وقال: «سيكون لدينا قريبًا رزمةٌ أخرى من النّقود عندما أقفُ على قدمي.. أنا سعيدٌ لأنني أخبرتُك عن النقود قبل أن أقع..»

ـ «أخبرتني عن ماذا يا رجل؟»

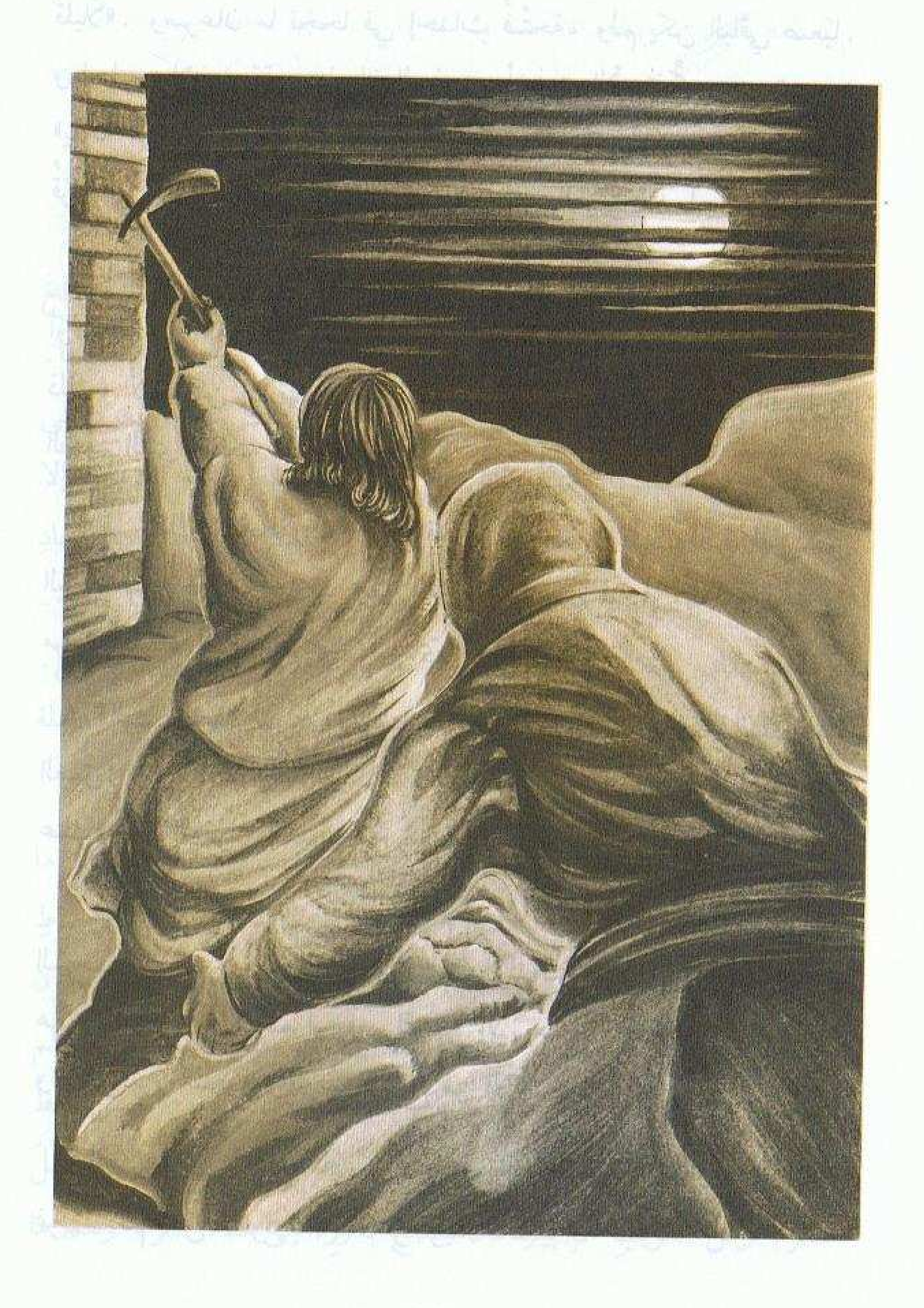
ـ «أنني دفنتُ النّقودَ تحت الأرض. خُيّل إليَّ في منامي الآن أنّني لم أقلْ شيئًا عن ذلك». اقتربتِ السيّدة برينكر منه فأمسكَها هانز من ذراعِها، وهَمَسَ قائلاً: «هس! أمّي ينبغي أن نكون حذرين».

وفيما هي واقفةٌ وقد شبكتْ يديها تنظرُ بقلقٍ بالغ، سأله هانز بصوت مرتعش: «كان ذاك حلمًا مزعجًا. هل تذكر متى دفنتَ النّقود يا والدي؟»

ـ «نعم يا ولدي، كان ذلكَ قبل طلوع النّهار في اليومِ نفسِه الذي أُصبتُ فيه، لقد قال جان كافوسين شيئًا جعلني أشكُّ في أمانته، وهو كان يَعْرِفُ أنّني قد وفَّرتُ ألف غيلدر، لذلك نهضتُ في الليل وأخفيتُ النّقود تحتَ التراب».

قال هانز وهو يشير إلى أمّه وأختِه أن تَلْزَما الصمت: «أظنُّ يا والدي أنّك نَسيتَ أين دفنتها». قهقه الأبُ وقال: «كلاّ بالطّبع، والآن تصبح على خير يا بنيّ، أستطيع أن أعودَ إلى النوم». كان بوسع هانز أن يتابعَ حديثَه ولكنّه ما كان يستطيع أن يخالفَ إيماءاتِ أمّه، لذلك اكتفى بالقول برقّة: «تصبحُ على خير يا والدي». وتابعَ: «أين قلت إنك دفنت المال؟ لقد كنتُ صغيرًا آنذاك».

ـ «قريبًا من الصّفصافةِ المنتصبةِ وراءَ الكوخ».



ـ «آه نعم في الجزءِ الشّمالي من الشجرة، أليس كذلك يا والدي؟»

ـ «لا، في الجزء الجنوبي، أنت تعرف البقعةَ جيّدًا، أنتَ تتخابَث. لقد كنتَ هناكَ عندما وضعتْها أمُك. الآن يا ولدي اقلبْ هذه المخدة هكذا. تُصبح على خير».

قال هانز وهو يكادُ يطير فرحًا: «تصبح على خير يا والدي!»

بزَغَ القمرُ متأخرًا جدًّا في تلكَ الليلة، وكان نوره يتلألأ ساطعًا من النّافذةِ الصّغيرة. ولكنّ أشعّتَه لم تزعجْ راف برينكر الّذي كان يغطُّ في نوم عميق. وكذلك كانت غريتل نائمة. أمّا بالنّسبة لهانز وأمِّه فقد كان لديهما ما يُشْغلهما.

فبعدَ اتخاذِ بعض التّحضيرات السّريعة انطلقا بوجهين مشرقين يَحملان رفشًا مكسورًا وأداة صدئة كان راف يستخدمُها في عمله في يوم من الأيام.

كان النّورُ ساطعًا في الخارج مما مكّنهما أن يريا الصّفصافة بوضوح. كانت الأرضُ المتجلّدةُ قاسيةً كالحجر. ولكنّ هانز وأمّهُ كانا عازمَيْن على التغلّبِ على كلِّ شيء. كان همُّهما الوحيد ألاّ يوقظا النائمَيْن في الكوخ.

قال هانز: «إن كسّارةَ الجليد هذه هي كلُّ ما نحتاجُ إليه يا أمي». وراحَ يَضرِبُ بها بقوّة ولكنّ الأرض كانت شديدةَ القساوة.

قالتْ له أمُّه وهي تُراقبه باهتمام: «لا تخشَ شيئًا، دعْني أحاولْ

قليلاً». وسرعان ما نجحا في إحداثِ فُتْحة، ولم يكن الباقي صعبًا. وراحا يعملان بهمّة ويتناوبان الحفر. وأخذت الأم تفكّر وهي تبتسم: «يا لهُ من خبرٍ سعيد له سأضع الرزمة عندما نجدُها بما فيها من نقودٍ قُربَه في هذه الليلة المباركة كي يراها زوجي العزيز عندما يستيقظ».

أجابها هانز الذي كان لا يزال يكدُّ في عمله: «يَنْبغي أن نجدَها أوّلاً يا أمي!» قالت وهي ترتجفُ من البرد والقَلَقِ: «لا شكَّ في ذلك، لا يمكن أن تهربَ منا الآن، سوف نجدُها في الوِعاء الفخّاريِّ القديم الّذي أضعتُه منذ زمن بعيد».

في تلك اللحظة كان هانز قد بدأ يرتعش أيضًا ولكنْ ليس من البرد. لقد حفر ما يقارب عمقَ قدم، مساحة كافية في الجزء الجنوبيِّ من الشّجرة، لا بد أنْ يصلا في أيِّ لَحظةٍ إلى الكنز.

قالت السيدة برينكر بنبرةِ انزعاج: «غريبٌ أن يحفرَ والدك بهذا العمق! أنا متأكّدةٌ أنَّ الأرضَ كانتْ طريّة، هانز دعْني آخذ الرفشَ عنك، كلما حفرنا أعمق يصبحُ العمل أسهل».

ومضتْ ساعةٌ إثْر أخرى والأمُّ وابنُها لا يزالان يكدّان. وبدأت السّحبُ تتجمّع في السماء مُلقيةً بظلالِها الداكنة على القمر. ولم ييأسْ هانز وأمّهُ من الاستمرارِ في الحفر إلا بعد أن خَفَتَ ضوءُ القمر وتلاشى نورُ النجوم واقترب الصّبحُ من الانبلاج.

لقد بحثا في كل مكانٍ حولَ الشّجرة، جنوبها، شمالها، شرقها، غربها. لم تكن النقود المخبّأةُ موجودةً هناك!

٣٢ ـ البحث عن عمل

فيما كان هانز يشقُّ طريقَه إلى أمستردام، بحثًا عن عملٍ، راحَ يفكّر في أنّ أمَّهُ لن تغضبَ مِنه إذا باع زلّاجتيه وجاءها بثمنهما. سيكون لديه متّسعٌ من الوقت كي يشرحَ لها ذلك عندما يعود إلى البيت. وفي أمستردام فتّشَ هانز عن عملٍ جاهدًا، ولكنّه لم يجدْ إلا بعضَ الأعمالِ المؤقتةِ التي لا تدرُّ إلا قروشًا قليلة، وأخفقَ في إيجادِ عملٍ دائم. ولم يتلقَّ من أصحاب المحالّ التّجارية إلا ردودًا سلبيّة. وكذلك كان الحالُ عندما راحَ يَبْحثُ عن عملٍ في بعض المصانع. فقد كان الجوابُ دائمًا: «لا حاجةَ بنا إلى مزيدٍ من الأيدي العاملة اليوم».

وعند الغروب بدأ رحلةَ العودة إلى برويك. ولم يعرفْ هانز ما إذا كان التحسّس المفاجيء الذي أصابه في حنجرتهِ ناجمًا عن الإحباطِ أو التّصميم. هناك بالتأكيد فرصةٌ أخرى. فلعلَّ السّيد فان هولب يكون قد عادَ إلى البيت الآن. لقد قيل له إن بيتر قد ذهب إلى هارلم بالأمس لترتيبِ أمرٍ له علاقةٌ بسباقِ التزلّج الكبير. ومن حُسْنِ حظّ هانز أنَّ بيتر عادَ مبكّرًا، فقد كان موجودًا في المنزل عندما وَصَلَ هانز. ومن الغريبِ أن بيتر كان يتطلّع بدورِه إلى لقاء هانز، وهذا ما

جعلهُ يصيح عندما رآه عند الباب: «أنتَ الشخص الذي أرغبُ في لقائِه. ادخلْ ونلْ قِسطًا من الدّفء».

غادرَ هانز منزلَ فان هولب الفخم بوجهٍ مُشرق. فقد زَفَّ بيتر إليه بُشرى مباشرته العمل في حفرِ أبواب المنزل الصّيفي في الحال، حيث تُوجد ورشةٌ مريحةٌ في المكان، وستكون هذه الورشة تحتَ تصرُّفه حتى يُنجزَ حفرَ الأبواب.

لم يخبرْ بيتر هانز أنّه ذهب خصّيصًا إلى هارلم كي يرتّب هذا العمل له، واكتفى بأن يرى أماراتِ السّعادة والحبور على وجه صديقهِ هانز. قال مُشجّعًا هانز بلهجةٍ ودودة: «أنا متأكّدٌ أنكَ ستُفْلِحُ في عملك، وستجدُ كلَّ ما يتطلبه العمل في الورشة». ثمَّ سأله عن أحوالِ والده فأجابَه:

ـ «إنّه أفضل، إنه يتحسّن كلَّ ساعة».

ـ «هذا شيءٌ مذهل، ذلك الطّبيب العجوز الفظُّ إنسانٌ عظيم».

ـ «آه يا صديقي، إنه أكثرُ من عظيم، إنه إنسانٌ طيّب. ولولا طيبةُ قلبه، ومهارتُهُ الفائقة لكان والدي المسكين اليوم في الظلام». وتابعَ هانز يقول: «أعتقدُ يا سيّدي أن الجراحةَ أنبلُ علمٍ في الوجود!»

ـ «قد تكون الجراحةُ نبيلةً ولكنني لا أستسيغُها تمامًا، من المؤكّد أن الدكتور بويكمان ماهرٌ، أما كشخص فهو لا يروقُ لي».

قال هانز بتعجب: «لماذا تقولُ هذا يا سيّدي؟»

عند هذه اللحظة من الحوارِ دخلتْ سيّدةٌ تتهادى من غرفة مجاورة. كانت السيدة هولب في كامِلِ زينتِها ولباسِها الأنيق. وسرعان ما قدّم لها بيتر كرسيًا وثيرًا كي تجلسَ عليه قرب المدفأة.

استعدَّ هانز للمغادرةِ، ولكن السيّدة بادَرته بعد أن جلستْ على كرسيها:

ـ «انتظرْ لحظةً من فضلك، لقد سمعتُ مصادفةً ما دارَ بينك وبين ابني من حديث عن صديقي الدكتور بويكمان. أنت على حقٍّ أيّها الفتى. فالدكتور بويكمان يتمتّعُ بقلب طيّب. ما تفكّرُ به يا بيتر هو حكمٌ خاطئٌ تمامًا على شخصٍ نادرِ المِثال في طباعه». قال بيتر: «أنا لا أقصد قلّة الاحترام. ولكن من المؤكَّد أنّ من غير الصَّواب أن يتصرَّفَ بتذمّرٍ وانتهارٍ للآخرين».

وأجابته والدته: «إنهم يتقوّلون عليه.. الجرّاح بويكمان أصابه غمٌّ عظيمٌ، فقد خَسِرَ منذ بضع سنين ابنَه الوحيد في ظروفٍ مؤلمة للغاية. إنه يتمتّع بروحٍ معنويّةٍ عالية.. إنه من أفضلِ الرجال الذين عرفتُهُم».

نظرت السيدة فان هولب إلى الطّفلين ثم غادرتِ الغرفة بكل هيبةٍ ووقار. وقبل أن يغادرَ هانز طَلَبَ إليه بيتر أن يتهيأ جيّدًا للسّباق، وقال: «الآن وقد تحسّن والدُكَ ستكون معنوياتُك مرتفعة كي تشارك في السباق، سيكون أفضلَ عرضٍ للتزلّج يَشْهدُه هذا الجزءُ من العالم، الجميع يتحدّثون عنه، عليك أن تفكّر بالجائزة، تذكّر ذلك».

قال هانز: «لن أشاركَ بالسّباقِ يا سيدي».

صاح بيتر مندهشًا: «لن تشاركَ في السباق! لماذا حقًّا؟»

وخَطَرَ ببال بيتر أن السّببَ يعود إلى كارل شوميل.

أجابَه هانز ببساطةٍ: «لأنّني لا أستطيعُ ذلك يا سيدي».

لم يشأْ بيتر أن يضغطَ على هانز أكثرَ من ذلك، فوَدّعَهُ وظل واقفًا يراقبُه وهو يتّجه نحو الباب. ولفتَ نظرَه أنَّ هانز انتعلَ زلاجتيه الخشبيتين القديمتين. واحتارَ بيتر في تفسيرِ ذلك وقال في نفسه: «لماذا بحقِّ السماء لا ينتعل زلاجتيه الجديدتين؟!»

٣٣ ـ العرّابَةُ السّاحرة

كانت الفتاتان الصغيرتان غريتل وآني تعدُوان أمامَ الكوخِ جيئةً وذهابًا. كانت ذراعاهُما متشابكتين وهما تسيران جنبًا إلى جنب. أسرعَ هانز إليهما فرِحًا وقال: «ها! لقد وجدتُ عملاً!»

جاءت السيّدة برينكر إلى باب الكوخ بعد أن سمعتْ صوتَ الجلبة. كان لديْها ما يَسُرُّها هي أيضًا. فقد كان زوجُها في تحسُّنٍ مستمر. وكان يَجْلِسُ مُعْظَمَ الوقتِ في البيت. وباتَ ينامُ «كالحَمَل الوديع» على حدِّ تعبيرِ السيّدة برينكر. قالت آني: «والآن جاءَ دوري يا هانز بعد أن نقلت إلى أمك الأخبارَ الطيبة. لقد بعتُ لك زلاجتيك، وإليك الثمن». صاحَ هانز وهو يَعدُّ قطعَ النقود بدهشةٍ: «سبعة غيلدرات، إنها أكثر ثلاثَ مرّات مما اشتريتهما به!» ووجد هانز في ذلك غبنًا للشاري. ولكن آني أقْنَعَتْه أنَّ الشاري كان راضِيًا بهذا الثمن، وكان مُلِحًّا في شرائِهما.

فَرِحت السيدة برينكر لرؤيةِ النقود. ولكنّها عندما علمتْ أن هانز باعَ زلاجتيه لقاءَ تِلك النقودِ أسِفَتْ لذلك وقالت:

«بارَكَ الله فيك يا ولدي! إنَّها خسارةٌ مؤلمةٌ بالنّسبة لك!»

أجابها هانز بابتهاج وهو يضعُ يديه في جيْبه: «سيكونُ لدينا الكثيرُ من المالِ يا أمّي، وسنكونُ من الأغنياء».

ـ «كان من الممكنِ أن نكونَ أغنياء لولا ذلك الرجل جان كافوسين، كان عند شجرةِ الصّفصاف منذ ثلاث سنوات».

قال هانز بتحسّر: «ربما كان هو... حَسَنًا يا أمّي يَنبغي أن نتخلّى عن فكرة النّقود المخفية، من المؤكّد أنّها فُقِدَتْ، والدي قال لنا كُلَّ ما يَعرِف، دعيْنا لا نفكّرُ في هذا الموضوع أكثرَ من ذلك».

ـ «من السّهل أن تقولَ ذلك يا هانز، سأحاول، ولكنّ هذا صعبٌ، ورَجُلي يحتاجُ إلى الكثير من وسائل الراحة، يا إلٰهي أين الطفلتان. لقد كانتا هنا منذ قليل. أين ذهبتا؟»

قال هانز: «لقد تسلّلتا خلفَ الكوخ كي تختفيا عنا. هسْ! سآتيكِ بهما..»

قالتْ آني بعد أن انضمَّ هانز إليهما: «غريتل وهانز! تخيّلا أنّني عرّافةٌ جاءَتْ لتقوم بزيارتكما. سأمنح كلَّ واحدٍ منكما فرصته اختيارِ أمنيّةٍ واحدةٍ كي أحققها له، ماذا تريدُ يا سيّد هانز؟»

ظهر على وجهِ آني شيء من الجديّة وهي تُخاطب هانز، ربما لأنّها كانت تتمنّى حقًا أن يكون لديها قوّةٌ ساحرة.

هَمَسَ صوتٌ في أُذنِ هانز يقول: «إنّها أكثرُ من مخلوقٍ بشري».
قال هانز: «أتمنى أن أجدَ شيئًا كنت أبحثُ عَنْه ليلة أمس».

ضحكتْ غريتل بسرورٍ، في حين انتقدتْه أمُّه قائلة: «عَيْبٌ عليك يا هانز!» ودخلتْ إلى الكوخ.

أمّا آني فقد خَطَتْ بضعَ خطواتٍ ثم مدّتْ يدَها إلى جيب مئزرِها وأخرجتْ خَرْزَةً زجاجيّة. وقالتْ وهي تعطيها لهانز: «ادفنْ هذه حيث علّمتُ بقدمي، وقبل بزوغِ القمر ستكون أمنيّتُكَ قد تحقّقتْ».

غرقت غريتل في الضّحكِ ثانية. ولكن آني تَظاهَرتْ بعدمِ الرّضا، وأنّبتها على فعلتِها.

أدّتْ آني دورَها بنجاح. فهي لم تتبسّمْ عندما كانا يتضاحكان. وودَّعتْهُما آني وراحت تَرْكُضُ بسرعة باتجاه البيت.

قالت غريتل وهي تودِّعها بنظراتِها. إنّها كالأزهار. جميلةٌ ولطيفةٌ جدًا.. ثم التفتتْ إلى أخيها قائلةً: «والآن يا هانز ماذا تنوي أن تفعلَ؟» قال هانز: «انتظري وسترين!» ودخلَ الكوخ وعاد ومعه الرّفشُ وآلةُ تكسير الجليد. وتابَع قائلاً: «أنا ذاهبٌ لأدفن خرْزتي السحرية!»

أطلّت السيّدة برينكر برأسِها من باب الكوخ تُنادي ولديها للدّخول فصاح هانز: «أمّي! أمّي! تَعالي وانظري هنا!»

فقالت المرأة بدهشةٍ: «أيّها القديس بافون ما الذي يُزعجُ الولد؟» صاح هانز ثانية باستثارةٍ بالغة: «أسرعي يا أمّي». وراح يعملُ بكلِّ

قوّته ويزيحُ الجليد. وتابعَ يقول لأمه: «ألا ترين؟ هذه هي النّقطة. تمامًا هنا في الجزء الجنوبيّ من الجذع. لماذا لم نفكّر في ذلك ليلة أمس؟ الجذعُ هو شجرة الصّفصافِ القديمة التي قطعتِها أنتِ في الربيع الماضي لأنّها كانت تُلْقي بظلالِها على البطاطا، الشّجرة الصغيرة لم تكنْ هنا عندما عمد والدي إلى.. ها!»

تَلعثمت السيّدة برينكر ولم تَعدْ تستطيعُ الكلام. جَثَتْ على ركبتيها وراحتْ تُتابعُ جهودَ هانز.. ها هو الوعاءُ الحجريُّ القديم! ومَدَّ يدَه وانتزعَ قطعةً من الآجرِ إثرَ قطعة.. ثم انتزعَ الجوربَ وفيه الكيسُ الأسود المتّسخ والمملوء بالكنزِ الّذي طالَ انتظاره.

وبعد أن عادوا إلى البيت عَلَتْ صيحاتُ الفرح والضّحكِ في أجواء البيت. والعجيب أنَّ راف لم يصحُ. كانت أحلامُه سعيدة فيما يبدو لأنه كان يبتسمُ وهو نائم.

تناولت السيدة برينكر والطفلان عشاءً سخيًا تِلْك الليلة. وقالتْ: «لم يعدْ ثمةَ حاجةٌ الآن لتوفيرِ الأشياء اللذيذة، وفي الغدِ سوف نحضِرُ لوالدِكما كلَّ ما يحتاجُ إليه من طعامٍ مُغذٍّ ومفيد.

في تِلْك الليلة نامتْ آني وهي تفكّر ما إذا كان هانز قد أضاعَ سكّينًا، وكم سيكونُ من المضحك أن يجدَها فعلاً. أما هانز فراحَ يتخيّلُ الأواني الذهبيّة من حَوْلِهِ والسّاعات والزلاجات والخرزات المتوهّجة..

٣٤ ـ سِرُّ السّاعة الغامض

ظَهَرَ شيءٌ آخرُ غيرُ النقودِ الضائعةِ في اليوم الذي زارتْ فيه «العرّابةُ الساحرةُ» المنزل. إنها قِصّةُ السّاعة التي ظلّت السيّدة برينكر تُحافظ عليها بكلِّ حرصٍ طَوالَ عشرِ سنواتٍ! فقد كانتْ تتذكّرُ دائمًا وصيّة زوجِها بالمحافظةِ عليها. وكثيرًا ما كانَ يَصعبُ عَلَيْها أن ترى ولديها يتضوّران جوعًا، وهي تَعْلَمُ أنَّ السّاعة إذا بيعتْ ستعيدُ النّضارة إلى وجهيهما. ولكن لا. فالسيدة برينكر لا يُمكن أنْ تَنْسى وصيّةَ زوجِها الأخيرة مَهْما كَلَّفَ الأمر.

كان كُلُّ ما قاله لها وهو يُسلِّمُها إيّاها: «حافظي عليها جيّدًا يا زوجتي». لم يقدِّمْ لها أيَّ تفسير، فقد كان في عجلةٍ من أمره، لأنه اسْتدعِيَ في تِلْك الليلة لترميمِ الحاجز المائي، حيثُ وَقَعَ لَهُ ذلك الحادثُ الّذي أفقدَهُ الوعي والذّاكرة.

أرادت السيّدة برينكر أن تعرفَ سِرَّ تِلْكَ السّاعة التي بقيتْ في المنزل طَوالَ تِلْك الأيام. لقد آنَ الأوان أنْ تَعْرِفَ قِصّتها. ناولتْه السّاعة بعدَ أنْ لمّعتها فوضَعَها في يدِهِ وراحَ يُقلِّبُها. قال: «إنّي أتذكّرها»! وتَمتمَ بكلماتٍ: «يا لَهُ من ولد مسكين!»

لم تفهمِ السيّدة مَعْنى هذه العبارة. واستاءَتْ لأنَّ زوجَها لم يقدِّمْ لَها تفسيرًا لوجودِ تِلك السّاعةِ عِنْدَه، وللمحافظةِ عليها كل هذه السنوات. كانت تنتظرُ منْه تفسيرًا فإذا به ينطِقُ بكلماتٍ لا معنى لها. وفقدتِ السيدة برينكر أعصابَها لأوَّلِ مرَّةٍ، وراحت تُناقِشه بحدَّة. وعندما تنبّهتْ إلى أنّها بالغتْ في عصبيتِها عادتْ تَسْتَرضي زوجَها وتُحاول أن تفهمَ مِنه من خلالِ الحِوار الهادىء سِرَّ تِلْكَ الساعة. وحاولَ هو بدوره أن يسترضيَها. ولكنّه وَجَدَ من الصعب عليه في البداية أن يَشْرَحَ لها. وشعرت السيّدة برينكر باضطرابِ زوجِها وتردّدِه في الكلام. قالتْ لَه: «هدىء من روعك يا راف». وأخيرًا قال راف: «جاءني ذاتَ يومٍ فتى يبدو نبيهًا وأمينًا ولكنّه كان مضطربًا، لم أكنْ قدْ رأيتُ وجهَهُ من قبل، كانتْ أماراتُ وجههِ تَدُلُّ على الخوف، أمْسَكَ بي من يدي وقال: «إنّك تبدو رجلاً أمينًا». بدتْ كلماتُه غيرَ مفهومةٍ وتَدْعو إلى الحذر.. بدا كلُّ شيْءٍ لي كأنّه حلم».

وسألتْهُ زوجتُه: «متى حَدَثَ ذلك؟»

قال: «قَبْلَ انبلاجِ الصبح.. في اليوم ذاتِه الذي وَقعَ فيه الحادثُ الذي أُصبت فيه.. ما زلتُ أتذكّر وجهَه.. شاحِبًا مذعورًا.. طلبَ مني أنْ أنقلَهُ بالقارب، فقلتُ له إنّني لا أعملُ في نقلِ الركّاب.. فألحَّ عليَّ في الطّلب.. أخذْتُهُ معي في القاربِ مسافة خمسةِ أميال أو ستة، وأنزلْتُهُ. وقال لي إنّه يستطيعُ أن يجري بقيّةَ المسافةِ إلى الشاطىء، وقبل أن يقفز من القارب قالَ لي وكأنّه يَبْكي: «أستطيعُ أن

أثقَ بك، لقد اقترفتُ أمْرًا، ولكنَّ الله وحدَه يعلمُ أنّني لم أقصدْ ذلك.. ولكنَّ الرجل مات، لا بدَّ أن أهربَ من هولندة».

وهنا سألتْهُ زوجتُه ما إذا كانَ قَدْ أطلقَ النّار على أحد.

وأجاب الزوج: «لم أعدْ أذكر، كُلُّ ما أذكره أنّني قلتُ لَه إنّني كمواطن صالح لا يمكن أن أخونَ قوانين بلادي وأساعِدَهُ على الهرب.. ولكنّه ظَلَّ يردّد: «الله يَعْلَمُ أنّني بريء!» وقبل أن يودِّعَني، وهو ينظرُ إليَّ بعينين صافيتين كعيني هانز، قالَ لي إنّه سيغادرُ البِلادَ ولن يعود، وقال: «سأثقُ بك لأنك تَبْدو أهلاً للثّقة»، وتابعَ وهو يناوِلُني ساعةَ يَدِه: «هل لك أن تحملَ هذه إلى والدي وتقول له إنَّ ولدَه التّعيس أرسَلَها إليه؟» وقلْ لَهُ أيضًا إنه إذا كان يريدُني أن أعودَ فسأتحمّل المسؤولية بشجاعةٍ وأعود... ثم قَفَزَ من القارب وأخذ يبتعد، وكان آخر ما قاله: «قلْ له أن يرسلَ رسالة إلى...» ولم أعدْ أسمعُ شيئًا بعد ذلك.. مسكين ذلك الفتى! لقد تركَ الساعة أمانةً عندي ولكنها لم تصلْ بعدُ إلى مَن يجب أن تذهبَ إليه مُنْذ ذلك الحين».

قالتْ له زوجتُه: «سآخذها يا راف لا تخشَ شيئًا. ما هو اسمُ ذلك الأب؟ وأين يُمكن أن نجدَه؟»

ولكنَّ راف لم يعدْ يَذْكُرُ شيئًا بالطبع. وحاول أن يعصِرَ فِكْرَهُ علَّهُ يتذكر شيئًا.

سألتْ زوجته: «هلْ يُمكن أن يكونَ اسمُ أسرتِهِ بومغوفن. لقد سمعتُ أنّ ولدين لهذه الأسرة هاجرا منذ فترة، أحدُهما اسمه جيرارد والآخر لامبرت».

راف: «رُبّما. انظري ما إذا كان ثمةَ أحرفٌ على ظهرِ الساعة فربما تساعدنا». صاحتِ المرأةُ بسعادة، وهي تقلِّبُ الساعة: «بارَكَ الله فيك أيّها الرجل، أنت الآن أذْكى من أي وقتٍ مضى! هذا أكيد». وقرأتْ هذه الأحرف ل ج ب هذا يعني أنّه لامبرت بومغوفن، أما ج فربما تعني اسم الأب الأول.

وتابعتِ الزوجةُ: «اذهبْ إلى النوم الآن يا راف، فأنت متعب. وسأجدُ طريقةً غدًا لإيصال الأمانةِ إلى أهلها».

٣٥ ـ اكتشاف مفاجيء

كان اليوم التالي يومًا مَليئًا بالمشاغلِ بالنّسبةِ لأسرةِ برينكر. فقبلَ كلِّ شيء كان لا بُدَّ من إعلام الوالد بما جَرى حولَ اكتشافِ النقود، وهو ما أدْخَل السرورَ إلى قلبه. أما السيّدة برينكر فكانتْ مشغولةً بالمتطلّبات الكثيرة التي يحتاجُها المنزل والتي باتَ بوسْعِها أن تشتريها بعد أن وُفِّر المال لها. ومع أنّها لم تُحْضرْ من أمستردام إلا أشياءَ قليلةً مما كانت تفكِّرُ بشرائِه، لم يمنعْها هذا من أن تُعِدَّ لأسرتها عشاءً غنيًّا ولذيذًا، وتدعو راف إلى أن يتصدَّرَ المائدة بوصْفِهِ سيد المنزل.

قال راف وهو يجلِسُ على الكرسيِّ باسترخاء: «هل تتذكّرين يا سيدتي صندوقَ الموسيقى الرائع الذي كان يُسْعِدُك سماعُه في البيت الكبير في هايدلبرغ؟»

أجابته زوجته: «طَبْعًا أذكره بمفتاحه النّحاسيِّ وموسيقاه الرائعة».

كانت الأسرةُ سعيدةً على مائدة العشاء. يتسامرون ويَنْعَمون بلذائذ الطعام. لطالما انتظروا مثلَ هذه الأمسيةِ الهانئةِ التي يلتئِمُ فيها شملُ العائلة!

وبعدَ العشاء جاءَ حديثُ الساعة والتداولُ بشأنِ إيصالها إلى

أصحابها. وقامتِ السيدة برينكر لتعيد الساعةَ إلى مخبئها القديم. وفجأةً سمعتْ أصواتَ عجلات تَجْري فوق الأرضِ المتجمدة. وقرع أحدُهم الباب.

قالت السيّدة برينكر بعد أن أخفتِ الساعة بسرعة: «تفضّل! آه أهذا أنت يا سيّدي؟ يا له من يوم سعيد. إن المكانَ لا يَليق باستقبالِكَ يا سيّدي. لكنَّ العشاءَ لم يُرْفَعْ بعد».

لم يعر الدكتور بويكمان اعتذارَها اهتمامًا، فقد كان في عجلةٍ من أمره. تَنَحْنَح قليلاً وقال: «المريضُ يتحسّن بسرعة».

قال راف بسعادةٍ: «الآن يا سيّدي تستطيع أن تَتَقاضى أتعابَكَ المستحقّة، الله يعلمُ أنّك تستحقّها عن جدارة فقد استطعت أن تعيدَ إنسانًا مسكينًا إلى العالم.. إلى أسرتِه. أبلِغ السيدة كم تريد وهي ستدفعُ لك بكلِّ سرور».

قال الطّبيب برقّة: «دَعْك من هذا ولا تقلْ شيئًا عن النقود. أستطيع أن أكسبَ الكثير من المال في كلِّ وقت. ولكن الامتنانَ شيءٌ نادر. إن شكْرَ هذا الغلام لي، وأشارَ بإصبعه إلى هانز، هو خيرُ أجرِ يقدَّم إليّ».

تذكّر راف هنا موضوعَ الساعةِ الغامضةِ، وخَطَرَ ببالِهِ أنْ يسألَ الطّبيب ما إذا كان يعرفُ أحَدًا من أسرةِ بومغوفن. وجاءَ جوابُ الطبيب مقتضبًا:

«نعم كان عندَهُم مشكلة. وقد هاجروا منذ زمنٍ بعيد إلى أمريكا». تدخّلتِ السيدة برينكر بالحديثِ وقالتْ تُخاطب زوجها: «لعلَّ السيد، يا راف، يَعْرِفُ أحدًا ما يمكنُه أن يوصلَ الساعة ورسالةَ ذلك الشابِّ المسكين إلى أسرةِ بومغوفن».

اعترضَ راف على ذلك قائلاً: «كيف نُزْعِج السيدَ بأمرٍ كهذا؟ ثُمَّ ما أدراكِ أن هذه العائلة هي عائلة ذلك الشاب؟»

أجابتْ السيدة: «أنا متأكدة. فهذه العائلةُ كان عندها ولدٌ اسمُه لامبرت وهذا يعني حرف «ل» أما حرف ب فيشير إلى بومغوفن. ولكن ج لا أدري إلام تَرْمِز. لعلَّ الطّبيب يستطيعُ أن يشاهدَ ذلك بنفسه».

وسحبتِ الساعة وأرتْهُ ظهرها.

صاحَ الدكتور بويكمان وهو يقفزُ نَحْوَها: «ل. ب. ج!»

وكانت المفارقةُ أن رسالةَ الشابِّ المسكين قد سُلِّمتْ في هذه اللحظة إلى صاحبِها بالفعل!

صاحَ الطبيب وهو يحدِّقُ بعينين مُشْفقتين في الساعة: «لورنس! ولدي لورنس! لو أنّني علمتُ بأمرِ هذه الرسالة من قبل! لورنس اليوم لا وطن له، يا إلَهي! لا بُدَّ أنّه يعاني بمرارة ويموت في كل لحظة، فكِّر معي يا رجل أين هو الآن؟ إلى من قال ابني لك أنْ تُسلِّمَ الرسالة؟»

هَزَّ راف رأسَه بحزن..

قال الطّبيبُ بتوسل: «تذكّر!»

تنهّدَ راف بعد أنْ خذلتْهُ ذاكرته وقال: «إنّها قصّةٌ قديمة».

شَعَرَ هانز بالأسى من أجلِ الطّبيب، فطوّق عنقه بيده بحركةٍ عفويّة وقال له بحرارة: «أنا أستطيعُ أن أجدَ لك ابنَك يا سيّدي، إذا كان حَيًّا فهو موجودٌ في مكانٍ ما، إن العالَم ليس كبيرًا جدًّا، سأكرّسُ كلَّ يومٍ من حياتي من أجلِ البحثِ عَنْه، أنتَ رجل ثريٌّ يا سيّدي أرْسِلْني حيثما تشاء».

لم يحر الدكتور بويكمان جوابًا. كان يركّزُ نظرَه بقلقٍ على راف برينكر. وفَجْأةً رفع السّاعة وحاولَ بتوقٍ شديد أن يفتحَها.

لاحظَ راف علاماتِ خيبةِ الأملِ الشديد على وجهِ الطّبيب فسارعَ إلى القول: «كان هناك شيءٌ آخر في العلبة يا سيّدي، ولكنَّ الشّابَّ النّبيلَ مزّقه قبل أن يسلّمها لي. رأيْتُه يقبّلُه قبلَ أنْ يُلْقي به».

قالَ الطّبيب بألم: «لقد كان صورةَ والدته، ماتتْ عندما كان في العاشرة من عمره، شُكرًا لله أنَّ الولد لم يَنْسها! كلاهُما ميت، هذا مستحيل!» وصاحَ وهو يحدّقُ فيهم: «إنَّ ولدي حيّ، أريدُكم أنْ تعرفوا هذه القصة، لورنس عملَ مساعداً لي، لقد أعْطى عن طريق الخطأ أحدَ مرضاي الدّواءَ الخطأ، كان الدواءُ سُمًّا زُعافًا، ما كان هذا الدواءُ ليُعطى لو أنّني اكتشفتُ الخَطأ في حينه، ماتَ الرجل في ذلك اليوم، كنتُ مشغولاً بمعالجةِ حالاتٍ سيّئةٍ أُخرى حتى المساء التالي، وعندما وصلتُ إلى البيت كان ولدي قد رحل». وتابعَ الرجلُ وهو



يشهقُ بالبكاء: «مسكين لورنس! لم يسمعْ مني شيئًا طوالَ تلك السنين، لقد أُغفلتْ رسالَـتُه. أوه، ما أشدَّ ما عانى!»

أرادتِ السيدة برينكر أن تقولَ شيئًا. فقد كانَ أيُّ شيء أفضلَ من رؤيةِ ذلك الأبِ يبكي. ولكنَّ راف أسكتها.

وتابعَ الطبيب يَروي مأساته: «كان ينتظرُ أن يسمعَ مني شيئًا، فيما كنت أنا أفكِّرُ أنّه هجرني. لم أكنْ أعرف يا برينكر أنَّ الفتى قد اكتشفَ خطأه، كنت أعتقدُ أنّها حماقةُ شبابٍ، عقوقٌ، أو قد يكون حبُّ المغامرة هو ما دَعاهُ إلى الرحيل بعيدًا. مسكين ولدي لورنس!»

قال هانز هامِسًا: «ولكنّكَ الآن تعلمُ كلَّ شيء يا سيدي، أنت تعلم أنه بريء وأنه كان يحبّك ويحبُّ والدتَه المتوفاة، سوف نَجِدُه، ولسوف تَراهُ ثانيةً يا سيدي العزيز».

قال الدكتور بويكمان وهو يُمْسِك بيد الفتى: «باركَ الله فيك! قد يكون الأمر كما تقول، سأحاول». والتفت إلى برينكر قائلاً: «وأنتَ يا برينكر إذا ما استطعتَ أن تتذكر أيَّ شيء يتعلّقُ بابني فأعلمْني به على الفور».

قال الجميع: «بالتأكيد!»

التفتَ الطبيب إلى السيّدة برينكر وقال: «إن عيني وَلَدكِ تُشْبِهان عينَي ولدي إلى حدٍّ غريب، عندما رأيتُه أوّلَ مرّةٍ خُيِّل إليَّ وكأنَّ لورنس ينظرُ إليّ».

قالت السيّدة باعتزاز: «لقد شعرتُ يا سيّدي أنّك تميلُ إلى الغلام». ثم التفتَ الطبيب إلى برينكر كمن استفاق إلى نفسه وقال: «اغفرْ لي يا برينكر ما سبّبتُه لكمْ من اضطراب أرجو ألا تكون تضايقتَ منّي، أغادرُ بيتكم اليوم وأنا أسعدُ من أيِّ وقت مضى. هل أستطيعُ أن آخذَ الساعة؟»

ـ «بالطّبع يا سيّدي. إنّها رغبةُ ابنك».

ـ «ليباركْكم الله يا أصدقائي الأعزاء! سأكونُ ممتنًّا لكم إلى الأبد!» قالت السيّدة برينكر وهي تَمْسَحُ دموعَها: «ليباركك الله أيضًا يا سيّدي، وآمل أن تجدَ الشاب النبيل قريبًا».

قال راف: «آمين!»

استدارَ الطبيب ليهُمَّ بالخروجِ من الكوخ. لَحِقَ به هانز وقال:

ـ «عندما أستطيعُ أن أخدمَكَ يا سيّدي سأكونُ مستعدًّا».

أجابه الطّبيب برقّةٍ بالغة: «حَسَنًا يا بني، قُلْ لهم ألاّ يخبروا أحدًا بما جرى، وفي الوقت نفسِه أريدُكَ أن تُراقبَ حالةَ والدِكَ عندما تكون معه، أنت ذكيّ، في أيِّ لحظة قد يُصْبحُ قادرًا على أن يفيدَنا بمعلوماتٍ أكثر».

ـ «ثِق بي يا سيّدي».

قال الطبيب وهو يدْخلُ في عربته: «نهارُكَ سعيدٌ يا ولدي».

قال هانز في نفسِه وهو يُتابع عربة الطبيبِ بناظريه: «السيّد يتمتعُ بحيويةٍ أكثر مما كنتُ أظنّ».

٣٦ - السّباق

جاءَ أخيرًا العشرون من شهرِ كانون الأول بطابِعه الشّتوي. كان يومًا دافئًا تُشْرِقُ فيه الشمس. كلُّ مواطن كان يرغبُ في أن يَحْضُرَ السباق. فقد امتلأَ القسمُ الشّمالي من «واي» بالمتفرجين المتشوّقين، ذلك أن أخبارَ مباراة التزلّج كانت قد انتشرتْ في كل مكان. وتوجّه الرجالُ والنساء والأطفال بثيابِ العطلة إلى مكانِ السِّباق.

كان الموقعُ الذي اختير للسِّباق سَهْلاً مُنْبَسِطًا من الجليد قرب أمستردام، حيث توجّه المواطنون بأعدادٍ كبيرة. كما وجدَ الغرباءُ عن المدينة في السباق فرصةً لمشاهدةِ ما يَنْبغي مشاهدتُه حقًّا في هولندة. لقد بدا من كَثْرة الجموعِ المتّجهة إلى المكان أنّه ما من فردٍ لديه عجلات أو زلّاجات أو حتّى قادر على السير على قدميه إلا وسارعَ لرؤيةِ العرض. رجال ونساء.. فتيان وفتيات من كلِّ حَدَب وصَوْب. الهولنديون المعروفون بالهدوءِ يخرجون عن عادتِهم في هذا اليوم حيثُ اللغطُ والضّجيج وأصواتُ الموسيقى يَخْتلِطُ بعضها ببعض لتُحْدِثَ جلبةً صاخبة.

وفي مكانِ العرض توجدُ عدّةُ أجنحة أو منصّات للمشاهدين.

وفي أحدِ هذه الأجنحة كانت تجلسُ أسرةُ فان هولب التي جاءت من لاهاي. لقد وفَتْ شقيقةُ بيتر بوعدِها له بحضور السباق، وجلبتْ معها باقاتِ الأزهار المنزليّة لتُهْديها للفائزين.

هـذه المنصّـاتُ كـانـت قـد نُصِبَـتْ منـذ الصبـاح، وغَصّـتْ بالمتفرجين. أما منصّاتُ الحكامِ فكانت الأقربَ إلى موقع السباق بالطبع.

انطلقتْ أصواتُ الموسيقى تَصْدَح بأعذبِ الألحان في الهواء الطّلـق حتـى يُخيّـل إليـك أنهـا آتيـةٌ مـن نـور الشمـس. ولكـن أيـن المتسابقون؟ لقد تجمّعوا كلُّهم عِنْدَ الخطوط البيضاء.. يا له من منظرٍ رائع. أربعون فتى وفتاة بملابسَ زاهيةٍ وعيونٍ متوثّبةٍ ينتظرون بلهفةٍ إعطاءَ إشارةِ البَدء. كانوا مُفعمين بالحيوية والنشاط.

وكنتَ تَرى عند الخطوط البيضاء وُجوهًا مألوفة: لامبرت، لودفيغ، بيتر، كارل.. كلُّهمْ كانوا هناك في وضعِ استعدادٍ للانطلاق. ولم يكنْ هانز بَعيدًا عَنْهم كان بدورِه يستعدُّ للانضمامِ إليهم. لقد استطاعَ أن يستعيدَ زلاجتيه القديمتين اللتين بِيعتا بسبعة غيلدرات بعد أنِ اكتشفَ أنَّ الشّاري لم يكنْ سِوى آني نفسها.

عشرون فتى وعشرون فتاة. والأخيراتُ كُنَّ واقفاتٍ في المقدمة، فهنَّ اللواتي سيبدأن الشوطَ الأوّل من السباق. وكان بينهن هيلدا وريكي وكاترينكا. كانت هيلدا تتحدّثُ بودٍّ إلى فتاةٍ صغيرة رقيقة

تَرْتَدي معطفًا أحمر. ولم تكنْ هذه الفتاة الرقيقة سِوى غريتل! كما كانت معهن أيضًا آني بومان وشقيقة جانزون كولب.

أوْشَكَ السّباق على البَدْء. اصطفّتِ الفتيات العشرون عند خطٍّ واحد، توقفتِ الموسيقى. ووقفَ المنادي بين الصفوف ومنصة الحكام، وشرعَ بقراءة قواعدِ السباق بصوت عالٍ:

«يتسابقُ الفتيان والفتيات بالتناوبِ، حتّى تفوز فتاةٌ واحدة وفتًى واحد. يَنْطَلقُ الجميع من خطِّ البداية ويتزلّجون حتى موقع تجمُّع الأعلام ويستديرون ويعودون إلى نقطةِ البَدء، وبذا يكونون قد قطعوا مسافةَ ميلٍ واحدٍ في كل شوط».

رَفْرَفَ العلم في منصَّةِ الحكام. ونهضت السيدة فان غليك بكل مهابةٍ في جناحها، وتقدَّمتْ إلى الأمام ومعها منديلٌ أبيض في يدها. وعندما أسقطت المنديل من يدها أعطى ضارب البوق إشارةَ الانطلاق.

وهكذا أُعْطيت الإشارةُ وانطلقتْ جميعُ المتسابقات، وتعالَتْ الهتافاتُ في صفوف المشاهدين: هوراه! وسرعان ما وَصَلَتْ خمسُ فتيات إلى المقدمة، وكانت الأولى بينهن كاترينكا، ولكن هيلدا استطاعت أن تتجاوزَها وهي تَلوّح بيدِها لأمِّها. وكانت اثنتان أخريان تَقْتربان منهما وهما تَنْطَلقان كالسّهم. ما هذا البريقُ الخاطفُ من اللونين الأحمر والرمادي، هوراه! إنها غريتل. وعَلَتْ أصواتُ

المتفرِّجين. ولكنها لم تسمعْ سوى صوتِ أبيها يقول: «أحسنتِ يا صغيرتي!» وسرعان ما استطاعتْ كاترينكا أن تتجاوزَ هيلدا ثانية وهي تضحك. وتقدّمتِ الفتاة ذات اللباس الأصفر. لقد تجاوزت الجميع عدا غريتل. مالَ الحكام إلى الأمام دون أن يرفعوا عيونهم عن ساعاتِهم. كانت أصوات الهتافات تتعالى موجةً إثْرَ أخرى في الهواء. وتقدّمتْ غريتل على جميعِ المتسابقات، وربحتِ الشوط.

صاح المنادي: «فازت غريتل برينكر بالميلِ الأول».

وأومأ الحكام برؤوسهمْ، ودوّنوا شيئًا في الجداولِ التي يحملونها.

وفيما كانت المتسابقات يَنَلْن قسطًا من الراحة تجمهر بعضُهن حول غريتل المتهيِّبة، فيما نـأتِ الأخريات عنها في ترفّع. وجاء دورُ الصّبية كي يأخذوا أماكنَهم عِنْدَ نقطةِ الانطلاق. وسقط منديل السيّد فان غليك، وأطلق نافخُ البوقِ إشارةَ البدء!

أين هم الآن؟ ثمةَ شبحٌ أسودُ يتقدّم، وتتعالى الأصوات. إنّه يقتربُ ويقتربُ.. كان هناك بن وبيتر وهانز! وكان هانز في المقدّمة! وعَصَرَتِ السيدة فان جيند باقاتِ الأزهار في يدها. فقد كانت متأكدةً أنَّ أخاها بيتر سيكون الأول. وتقدّمَ بيتر بالفعل ولكن هانز استطاع أن يتجاوزَه. وامتلأتْ عينا هيلدا بالدّموع. يجب أن يفوز بيتر. وراحتْ كلٌّ من آني وغريتل تُـتابعان المنافسة بتلهُّف. إنّه هناك! وكان خَلْفَه مباشرةً شوميل. وفي اللحظةِ الأخيرة جمع كارل قُواه وانسلَّ بينهما وفازَ بالشوط.

وصاح المنادي: «كارل شوميل: الميل الأول».

ونهضت السيدة فان غليك ثانيةً.. لتُلْقي بالمنديل مُعطيةً الإشارة لنافخِ البوق كي تَبدأ الجولةُ الثانية من سباقِ الفتيات.

وبدأت الجولةُ الثانية. كانت هناك وجوه غيرُ مألوفة وسطَ مجموعة المقدمة، وفيها أيضًا كاترينكا وهيلدا، ولكنّ غريتل وريكي كانتا في المؤخَّرة. وكانت غريتل تُلَوِّح بيدها، ولكن عندما تجاوزتها ريكي عادتْ فاستجمعتْ قوّتها من جديد. واقتربتا كِلْتاهما من كاترينكا. ولكنّ هيلدا لا تَزالُ في المقدَّمة. كانت تتقدّمُ مُسْرِعةً كالسّهمِ باتجاه الهدف.. هوراه! وتعالت الهتافات وسُمع صوت المنادي يعلن:

«هيلدا فان غليك الفائزةُ بالشوط الثاني!»

وارتفعتْ أصواتُ الاستحسان وسطَ جمهورِ المشاهدين. ومرّةً أُخرى علا نفير البوق معلنًا بدء جولةٍ جديدةٍ للفتيان.

كان ثَمّة ثلاثةُ فتية في المقدَّمة يتصدّرون السباق هم: هانز، وبيتر ولامبرت. وسرعان ما اخترق كارل الصفوف مُنْدفعًا كهبّة ريح. وسُمِعَتْ أصواتٌ وسط المشاهدين تقول: «هيّا يا هانز. هيا يا بيتر. لا تدعا كارل يهزمكما!» وسرعان ما تجاوز كلٌّ من هانز وبيتر كارل وانحصرت المنافسة بينهما على الصدارة.

وأعلن المنادي أخيرًا فوز بيتر.

وارتفع ضجيجُ الحَماسَةِ، فيما كان الحكّامُ يدوّنون النّتيجة في سجلاّتِهم. كانتِ الدورةُ الثالثةُ والأخيرة لسباقِ الفتيات لمسافة ميل. وقفت الفتيات متوثّباتٍ عندَ خطِّ الانطلاق، فهذه الدورةُ ستقرِّر من هي الفائزةُ النّهائية. فإذا لم تكنْ هيلدا أو غريتل، فثمةَ فرصة أمامَ الأُخْرَيات للفوزِ بالجائزة وهي زلاّجتان فضيّتان.

كانت كُلُّ متسابقةٍ تَشْعُرُ هذه المرة أنّها ستنهي المسافة بنصفِ الوقت. وشَخَصتِ الأبصارُ ثانيةً إلى السيّدة فان غليك. وجاءَ صوتُ نفير البوق ليُعْلِنَ بدءَ الدورة الثّالثة من السباق. واندفعتِ الفَتَياتُ بحماسةٍ بالغةٍ وقد أحنَين ظهورهن إلى الأمام مع المحافظة بالطّبع على توازنِهن.

وتعالت صيحاتُ التّشجيع والتأييد من هُنا وهناك من جديد، وازدادت الحماسة والإثارة. من هي الأولى؟ لم تكنْ ريكي ولا كاترينكا ولا آني ولا هيلدا، كلا ولا الفتاةُ ذات الثوب الأصفر. بل هي غريتل. أسرعُ صراعٍ عرفته حَلباتُ التّزلج. كان هناكَ شيءٌ في داخِلها يجعلها مصمّمةً على الفوز.

وضاعَ صوتُ المنادي وسط صياح الجماهير وهُتافاتهم. فقد تردّدت أصداءُ إعلان فوزِ غريتل بين المتفرجين: «لقد فازتْ غريتل بالزلاجتين الفضيتين!»

كانت تتزلّجُ فوقَ الجليد كما يطيرُ العصفور، وكالعصفور كانت

تتطلّعُ إلى مَن حولَها. وراحت تتفحّصُ النّاس علّها تجدُ والديها، ولكن هانز كانَ إلى جانبها. وتحلّقتِ الفتيات من حولها، وحيّتها هيلدا بصوتٍ رقيق. لن يسخرَ أحدٌ من غريتل بعد اليوم. لقد تُوّجتْ ملكةً للمتزلّجاتِ على الملأ!

والتفتَ هانز إلى بيتر فان هولب ليَرى ما إذا كان يشهدُ انتصارَ أخته. ولكنَّ بيتر كان في شغلٍ شاغل عن ذلك. كان منكبًّا على زلاجتيه مُحاولاً بسرعة شدَّ رباطِهما وقد بدا عليه الاضطراب. اقترب منه هانز بسرعة وسأله عمّا به، فتلقّاه بيتر بلهفة:

ـ «هانز أهذا أنت.. أحاول عبَثًا شدَّ الرِّباط، ولكنه مقطوع».

ـ «لا بُدَّ أن تستخدمَ رباطي!»

ـ «لا يا هانز مُطْلَقًا، اذهبْ وخذْ مكانك مع خالصِ شكري لك يا صديقي فصوتُ نفير البوق قد يَنْطَلقُ عمّا قليل».

وألحَّ هانز على بيتر أن يأخذَ رباطَهُ وبسرعة حتى لا تَضيع الفرصة. وأصَرَّ على أنّه لن يشترك في السّباق في هذه المرحلة. وراحَ يَرْبط بنفسهِ رِباطَ زلاجته على زلاجةِ بيتر دون أن يَدَعَ لَهُ فرصةً للاعتراض.

ونادى لامبرت بيتر: «تعالَ يا بيتر. نحن ننتظرك تعالَ وانضمَّ إلى الصَّف». وشجعه هانز وتمنّى لَهُ التّوفيق وقال لَهُ: «إنَّ الجميعَ اليوم يتطلّعون إلى فوزِك، إنّ المنافسَةَ محصورةٌ بينك وبين شوميل. ابذلْ أقْصى جهدك!»

التفت إليه بيتر وقال: «أنتَ إنسانٌ نبيلٌ يا هانز!»
وانطلق صوتُ البوق، وانطلق معه الأولاد!
ما أروعهم وهم يكتسحونْ كُلَّ شيء أمامَهم. إنهم شبابُ أمستردام. واشتدت المنافسة بين كارل وبن، وتقدّم بن. وصاح هانز من بينِ صفوفِ المتفرجين: «هيّا يا بيتر.. تقدّم يا بيتر. طِرْ يا بيتر». وتقدّم بيتر وتقدّم.. هوراه! لقد رَبحَ بيتر الزلاّجتين الفضيتين!!

ويصيحُ المنادي: «بيتر فان هولب».
وضاع صوتُه وسطَ مئاتِ الأصوات التي تردِّد: «بيتر فان هولب!» وصدحت أصواتُ الموسيقى وأشاعت جَوًّا من الابتهاجِ والحيويّةِ الدافقة التي تَتَناسَبُ مع حماسةِ الموقف.

وراحَ الفِتية والفَتيات يتزلّجون ببطءٍ يَقودُهم بيتر. كانوا يتزلّجون الآن للمتعةِ والابتهاجِ بالنّصر. ووقفوا أخيرًا أمام جناحِ السيّدة فان غليك شبهِ المستدير.

وقفَ بيتر وغريتل في الوسطِ متقدّمَين على الآخرين. نهضتِ السيّدةُ فان غليك بمهابة. ارتعشتْ غريتل ولكنّها وجدتْ أنّ عليها أن تنظر في وجهِ السيدة الجميلة. وشعرتْ فجأةً بشيءٍ يوضَعُ في يدِها جعلهَا تَشْعُرُ بفرحةٍ غامرة. إنها باقةٌ جميلةٌ من الأزهار المنزليّة. أمّا الجائزةُ الفضيّة المتوهّجةُ فكانتْ تَنْعَكِسُ على وجهَي الفائزَين فتُكسبُهُما مزيدًا من السّعادة والتّألق.

٣٧ ـ فرح في الكوخ

ربّما يكون من دَواعي الدهشة أن نعرفَ أن راف وزوجتَه كانا يشاهدان السِّباق، والأكثرُ من ذلك احتفالُهُما بِتلك المناسبة في مساء ذلك اليوم العشرين من كانون الأول. وضعتْ غريتل الزلاجتين الفضيتين والأزهارَ على الطاولة، حتى يراهما كلُّ مَن يدخلُ البيت. كان وجهُ السيدة برينكر يشعُّ نورًا وحبورًا لشدّة فرحتِها. أما غريتل وهانز فقد أخذا يدوران حولَ المدفأة وقد تشابكتْ أيديهما، ويتضاحكان بسعادة. وشاركهُما الأبُ فرحتَهما فراح يرقُص. ثم أمسكَ بيدي زوجته ورفعَها عن الأرض تعبيرًا عن سعادتِه. وفجأةً ندّتْ عنه صيحةٌ: «هو! تذكّرْتُه تذكّرْتُه. إنه توماس هيغز. حضَرَ اسمُه إلى ذاكرتي كومضةِ البرق، اكتبوا اسمَه اكتبوه!»

قَرعَ البابَ أحدُهم، فَظنّتِ السيدة برينكر أنّه الطّبيب. هُرِعَ هانز وغريتل كي يفتَحا الباب، فإذا هما وجهًا لوجه أمام بيتر ولامبرت وبن.

رحّبتْ بهم السيدة برينكر ترحيبًا كبيرًا. وردَّ الفتيةُ تحيّتَها مع انحناءةٍ شديدة. أما راف فقد اكتفى بهزِّ رأسه.

قال بيتر بعد أن جلسَ ثلاثتهم إنّهم كانوا في طريقِهم إلى حضورِ محاضرة في أمستردام، وإنهم عرّجوا على المنزلِ كي يُعيدوا لهانز رِباطَه.

فردّ هانز: «ما كانَ من داعٍ لهذه المشقّة. أنا آسفٌ جدًّا».

قال بيتر: «ليس ثمةَ مشقّةٌ يا هانز، جئتُ لأخبركَ بأننا ننتظرُ ذهابَك إلى العملِ غدًا، إنّ أبي مسرور من عملِك وقال إنّ أيَّ حفّارٍ مُحْتَرِفٍ لا يستطيعُ أنْ يصنعَ أكثرَ ممّا فعلت، إنّه يريدُ مِنْكَ أن تقومَ بعملٍ آخر من أجلِه، ولكنني قلتُ لَهُ إنّك ستعودُ إلى المدرسةِ ثانية».

أكّدَ راف برينكر ذلكَ قائلاً: «هذا صحيح، هانز يَنْبغي أن يذهب إلى المدرسةِ في الحال، وكذلك غريتل».

ردَّ بيتر: «أنا سعيدٌ بسماعِ ذلك، كما أنني سعيد جدًّا لاستعادتِك عافيتك». سَحَبَ بيتر رِباطًا طويلاً من جَيْبِهِ وناولَهُ هانز قائلاً: «لا حاجةَ لي بأن أشكركَ على إعارتي ذلك الرّباط يا هانز فأمثالك لا يَطْلبون الشّكر. ولكن يَنبغي أن أقولَ إنّك كنتَ في غايةِ اللطف معي، وأنا فخورٌ بأن أقرَّ بذلك، لم أكنْ أعرف، إلاّ عندما دخلتُ السّباق، كم كنتُ توّاقًا للفوز».

قالت السيدة برينكر: «لا شيء يستحقُّ الذكر، كان كلُّ همٍّ هانز أن تربحَ السباق». هنا تذكّر بيتر شيئًا وقال: «لقد نسيتُ مهمّتي الثانية. لقد رحلتْ أختُك سريعًا اليوم بعد انتهاءِ السباق، ولم يُتح

للسيدة فان غليك أن تعطيها المحفظةَ الخاصة بالزلاجتين. كانت المحفظةُ أنيقةً ومصنوعةً من جلد الماعز قرمزي اللون وموشّاة بالفضة».

شكرتْ غريتل بيتر بطريقتِها البسيطةِ وقالتْ لَهُ وهي تُقلِّبُ المحفظةَ: «إنّها من صنع بيرمنغهام».

قال لامبرت: «بيرمنغهام هو اسم مدينة في إنكلترا. دعيني أرَ.. ها! ها!» وضحك وهو يوجه المحفظة باتجاه ضوء النار وقال: «لا عجب أنك فكرت غير ذلك، لكن لا.. هناكَ خطأٌ بسيط، إنها مصنوعةٌ في بيرمنغهام، أما الصّانعُ فقد رَمَّزَ اسمَه بحرفين صغيرين جدًّا إلى درجة لا أستطيع قراءتهما» قال بيتر: «دعني أحاول قراءتهما عنك.. لِمَ يا صاح؟ إنّهما واضحان تمامًا: ت. هـ.» قال بيتر: «إنّه توماس هيغز بالتّأكيد».

شَعَرَ بيتر أن راف وهانز يحدِّقان فيه بدهشة. أما السيّدة برينكر فقد استدعت هانز على عجل وقالتْ له: «أين قبّعتُك؟ السيد الطبيب، السيد الطبيب!» تمتمَ هانز بدهشة: «بيرمنغهام! هيغز! لقد وجدناه!» قالتْ له أمُّه: «لا بُدَّ أن تذهبَ إلى أمستردام الآن لتُخْبرَ الطّبيب بالأمر». استأذنَ هانز من رفاقِه على عجل وأخذَ زلاجتيه وانطلق.

لم يفهمِ الحضورُ ما جَرى لأسرة برينكر فجأةً! وأرادَ الفِتْيةُ الثلاثة أن يستأذنوا بالانصراف. ولكنّ راف استوقَفَهم وهو يقولُ مُتلعثمًا: «إن

توماس هيغز هذا رجلٌ.. صديقٌ كُنّا نظنُّه في عدادِ الأمواتِ، آمل أن يكونَ هو نفسُه. هل قلتم في إنكلترة؟»

قال بن: «أنا أعرفُ هذا الرجل، لديه مصنعٌ يقعُ على بُعْدِ بضعةِ أميال من بيتنا، إنه رجلٌ غريب، وهو لا يبدو كالبريطانيين. له نظرةٌ وقورةٌ وعينان ساحرتان. إنه يصنعُ أشكالاً عدّة من المحافظِ والحقائب الجلديّة الفاخرة».

انصرفَ الأولادُ الثلاثة. أمّا هانز فقد وصلَ إلى أمستردام والتقى الطّبيب وأخبرَهُ القِصّةَ كلَّها.

لم يكن توماس هيغز سِوى لورنس ابن الدكتور بويكمان الذي فَرَّ من هولندة لاعتقادِه أنّه ارتكبَ خَطأً جسيمًا. جاء هذا الفتى إلى بيرمنغهام ليعملَ في صناعةِ الحقائبِ الجلدية متنكّرًا بهذا الاسم. لم يكنْ أحدٌ يَعْرِف من أين جاءَ ولا إلى أي جنسيّةٍ ينتمي. كان سكانُ تِلك البلدةِ يعرفون أنّه غريبٌ فحسب، وأنّه يُتْقن عملَه بإخلاص. استطاعَ أن يكتسب ثقةَ صاحبِ المصنع الذي جعلَهُ شريكًا له. وعندما تُوفي صاحبُ المصنع العجوز أصبح هو المالك الوحيد.

لم يكترث النّاس كثيرًا لمعرفةِ لُغزِ مجيئِه إلى المدينة. كان يكفيهم أنّه مستقيمٌ ومعاملتَه مع زبائنِه ممتازة. ولكن ما حَيّرَ مَن يحيطون به أو يعرفونه هو اختفاؤه المفاجىء بعد تسلُّمِه رسالةً وَصَلته من الخارج!



٣٨ ـ ضوءُ الشمسِ الساطع

صباحَ يومٍ مُثْلِجٍ من أيّامِ كانون الثاني تَوجّه لورنس بويكمان مع والدِهِ ليقدِّمَ فروضَ الشّكر والاحترام لأسرةِ برينكر. وكانتْ هذه الأسرةُ السّعيدةُ تنتظرُ بدورِها هذه الزيارة ممن كان يُدْعى في بريطانيا بتوماس هيغز.

وبعد إجراءات التّعارف أصَرّتِ السيّدة برينكر على تقديم الشّاي لضيوفِها. فالشّاي الساخن سيشيعُ الدّفءَ في حَنايا ضيفيْها في ذلك اليوم البارد. كان راف راضِيًا كُلَّ الرضى. فالرسالة سُلِّمت، والدكتور بويكمان وابنه سالمان ومعافيان. والشّابُّ لم يفعلْ ما يُشين على أية حال.

كان هانز يعتقد جازمًا أن سعادةَ توماس هيغز سوف تتجسّدُ في أن يعودَ ثانية مساعدًا لأبيه. وأما السيدة برينكر فكانت تتمنى لو أن أمَّ الفتى لا تَزال على قيد الحياة حتّى تَـنْعمَ برؤيته.

كان وجهُ الدكتور بويكمان ينضح إشراقًا وسعادة. بدا أصغرَ سِنًّا أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى. وقال يخاطبُ راف برينكر:

«ألستُ رجلاً سعيدًا يا راف؟ إن ابني سيبيعُ مصنعَه هذا الشهر ويفتح متجرًا للبضائعِ في أمستردام».

استغربَ هانز هذه الفِكرة وقال يخاطب الطبيب: «مستودعٌ للبضائعِ يا سيدي! ألن يكون ابنُك مُساعدًا لك ثانيةً؟»

ـ «كلاّ. . كلاّ. . إن لورنس يريد أن يكونَ تاجرًا».

لم يرتحْ هانز لجوابِ الدكتور بويكمان ولم يُخْفِ استياءَه. كان يعتقدُ أنّ مهنةَ الطبيب أنبلُ من أيّةِ مهنةٍ أخرى لأنّها تساعد على شفاءِ النّاس وإنقاذِ حياتهم. لم يرقْ كلامُ هانز للطبيب فأجابه باقتضابٍ وبشيء من التبرّم:

«الجراحةُ مهنةٌ قبيحة، إنها تتطلّبُ صبرًا ونكرانًا للذّات ومثابرة». وعادَ هانز يُدافع عن مهنة الطّبّ بحرارةٍ ويرفض تسميتَها بالقبيحةِ لأنها تجسّدُ كُلَّ ما هو إنساني.

بَدا الاستياء واضحًا على وجهِ الدكتور بويكمان الذي أدارَ ظَهْرَه للغلام واتجه إلى لورنس. وراحتِ السيدة برينكر تنظرُ إلى ابنها نظرةَ تحذيرٍ غاضبة. إلا أن الدكتور عاد والتفت إلى هانز وسألَهُ بضعةَ أسئلةٍ: عن سنّه، وما إذا كان يرغبُ في أن يكونَ طبيبًا، وما إذا كانَ أهلُه يرضون أن يذهبَ إلى الجامعة للدراسة ويكرّسَ نفسه لذلك، وكان جوابُ هانز على هذه الأسئلةِ «نعم» كبيرةً، قالَها بكلِّ حماسةٍ وتصميم.

وهنا انبرت السيدة برينكر قائلةً: «تستطيع أن تصدِّقَهُ يا سيدي، إنّ هانز كالصَّخرةِ عندما يصمّمُ على شيء».

ابتسمَ الطّبيبُ وقال: «حسنًا يا هانز لا شيء يَمْنَعُ من أن ننفِّذَ خطتَنا إذا كان والدك يُوافق». ووافقَ راف على ذلك ما دامت هذه رغبةَ هانز وما دام سيدرسُ ويعملُ تحتَ إشرافِ الدكتور بويكمان.

قال الدكتور بويكمان إنّه سيتكفّلُ بكلِّ تكاليف دراسة هانز وقال: «سيكون لدي ولدان: أحدُهما تاجرٌ والآخر جرّاح، وسأكونُ أسعدَ رجلٍ في هولندة. تعالَ إليَّ في الصباح يا هانز وسوف نرتّبُ الأمورَ في الحال».

الخاتمة

انتهتْ قصَّتُنا. الوقتُ يمضي في هولندة كما يمضي في كلِّ مكان.

طرأتْ تطوراتٌ كثيرةٌ على أسرة برينكر. فهانز عَمِلَ سنواتٍ طويلة بدأبٍ ونشاط قاهرًا كُلَّ الصِّعاب التي كانت تعترض طريقه ومُتابعًا كُلَّ موضوعٍ بكلِّ ما أوتي من طاقة. كانتْ قراراتُه مصيبةً دومًا. وكان كثيرًا ما يَسْتَرجِعُ مع رفاقه القدامى الطيبين كلماتٍ قيلت منذ زمن بعيد في ذلك الكوخ الصغير قرب «برويك»: «الجراحةُ عملٌ قبيح». ولكن هانز ظَلَّ يؤمِنُ دومًا بأنها «عملٌ عظيمٌ ونبيل. إنّها نوعٌ من التبجيل لصنع الله!»

أينما كنتَ في أمستردام اليوم تستطيعُ أن تَرى الدكتور برينكر الشهير راكبًا عربتَه الضخمة ليعود مرضاه. أو قد تراه يتزلَّجُ مع أبنائه وبناتِه فوق القناة المتجمّدة. أما السيدة آني برينكر، زوجة هانز، فهي كما يصِفها، ألطف وأعقلُ امرأة.

كذلك تزوّج بيتر فان هولب. لقد توّج قصة حبِّه لهيلدا بنهاية سعيدة. وكعادتهما في الأيام الخوالي لا يزالان يَمْشيان أو يتزلّجان معًا وقد تشابكتْ أيديهما.

أما كاترينكا وكارل فلم تُكْتَبْ لقصَّةِ حبِّهما نهايةٌ سعيدة. وشاب حياةَ كاترينكا شيءٌ من الحزن والكآبة. ولم يكن حظُّ ريكي بأفضلَ من ذلك. فطبيعتُها المتعجرفةُ وأنانيتُها قد أبعدتِ الكثيرين عنها. والإنسانُ لا يحصد عادة إلا ما يزرع.

أما لامبرت فان موينين ولودفيغ فان هولب فهما مؤمنان تَقيّان ومواطنان صالحان. وكلاهُما يَقْطن في أمستردام. إلا أن موطن موينين الحالي غيرُ بعيد عن «السنترال بارك» في مدينة نيويورك. وهو يقولُ: «لو أنَّ النيويوركيين يقومون بواجبِهم لكانتْ حديقتُهم تساوي في جمالِها حديقةَ بوش قرب لاهاي».

أما كارل شوميل فكانت حياتُه صعبة. فقد واجَهَ والدُه ظروفًا معاكِسة في عمله التجاري. ولم يكنْ لدى كارل أصدقاءُ حميمون، كما أنه لم يكن ليتمسّكَ كثيرًا بالمبادىء النبيلة.

ومن بين تِلك المجموعة من الأصدقاء الهولنديين كان جاكوب بوت الوحيدَ الذي رَحَلَ مبكّرًا عن الحياة. كان يتمتّعُ بطبيعةٍ حلوة وقلبٍ طيّبٍ وغيريّة لازمتْهُ طيلة حياته. وكان مُحبًّا للحياةِ والمرح، إلا أن التّحوُّلَ الشديد الذي أصابه كان أحد أسبابِ وفاته.

أما راف برينكر وزوجته فكانا يعيشان مُنَعَّمَينِ في أمستردام. ظلاّ وفيّين وسعيدَين وصادقَين في رغدِ العيش كما كانا تمامًا في أحْلَكِ الأيام. لديهما الآن بيتٌ صَيفيٌّ قُربَ كوخِهما القديم.

وهما كثيرًا ما يجْتمعان مع ولديهما وأحفادِهما في أمسياتِ الصيف الرائعة.

وقصّةُ هانز برينكر لا تكْتمِلُ إلا بالحديث عن غريتل التّي تقفُ دومًا إلى جانبه. غريتل العزيزة السّريعة البديهة الصبورة! سَلْ دكتور بويكمان عَنْها فيقول لك: «إنّها أروعُ مغنّيةٍ وأحَبُّ امرأةٍ في أمستردام». واسأل هانز وزوجته آني فيقولان لك إنها أعزُّ شقيقة، واسأل زوجَها فيقول لك إنها أذكى وأحلى زوجةٍ صغيرة في هولندة. أما إذا سألتَ راف برينكر والسيدة زوجته فتَفيضُ عيونُهما بدموع الفرح. وإذا سألت الفقير وجدت البَركةَ ترفرفُ في أرجاءِ المكان وتَحملُها الرياح.

مَن لم نسألْ بعد؟! رُبّما أسرةَ فان غليك، التي لن تنسى أبدًا كيف فازت الصّغيرةُ غريتل بجائزة «الزلاجتين الفضّيتين».

الاستثمار التربويّ

أ ـ في التّحليل والمناقشة:

١ ـ لماذا تَتَعَرَّض هولندة كثيرًا لمياه الفيضانات؟

٢ ـ ماذا كانَتْ غايةُ هيلدا حينَ طَلَبَتْ من هانز أن يصنَعَ لها عِقدًا خشبيًّا؟

٣ ـ ما دَليلُكَ في الفصل (٤) على إيثار الأَخوَين هانز وغريتل كلٌّ منهما للآخر؟

٤ ـ لماذا كان جاكوب بوت يشعُرُ بالتّعبِ أكثرَ من غيرِه؟

٥ ـ أيُّ شخصيّاتِ القصّة كانت أحبَّ إلى نفسِكَ؟ ولماذا؟

٦ ـ أيُّ شخصيّاتِها كانت أكرهَ إلى نفسِكَ؟ ولماذا؟

٧ ـ اذكرْ أهمَّ ما تمتازُ بهِ شخصيّةُ هانز.

٨ ـ اذكرْ أهمَّ ما تمتازُ بهِ شخصيّةُ بيتر.

٩ ـ اذكرْ أهمَّ ما تمتازُ بهِ شخصيّةُ غريتل.

١٠ ـ اذكرْ أهمَّ ما تمتازُ بهِ شخصيّةُ بن.

١١ ـ في هذه القصّةِ أسماءُ مخترعين ومبدعين عِظامٍ. اذكُرْ اسمَ كلٍّ منهم وما اخترع أو أبدع.

١٢ ـ في أيِّ الفصولِ تجدُ عُقدةَ هذهِ القصّة؟

١٣ ـ في أيِّ الفصولِ تجدُ حلَّ هذهِ العُقدة؟

١٤ ـ ماذا أثارَتْ فيكَ هذهِ القصّةُ من مشاعر؟

١٥ ـ ما المكاسبُ الّتي جنيتها من قراءةِ هذهِ القصّة؟

ب ـ في الشّرح والتّفسير:

١ ـ اشرح العبارات التّالية:

ـ كانَ الرّجالُ يعملونَ على رَأْبِ الصَّدْعِ:

....

ـ أكّدَتْ هيلدا على حضورهما:

....

ـ يَزُفّان إلى أمِّهما الأنباءَ الطّيّبة:

....

ـ جلَسَ الفِتيةُ يتسامرون:

....

ـ ينظرُ إليهِ شَزْرًا:

....

ما أجملَ الصّيفَ بأشجارهِ الوارفة!

....

ـ كانَ لكلٍّ منهم غرفةُ نومٍ فاخرةُ الرِّياش:

....

ـ كلُّ واحدٍ منهُمْ يبذُلُ قصارى جُهدِهِ:

....

ـ تكادُ أُمّي لا تنبِسُ ببِنْتِ شَفَة:

....

٢ ـ فسّرِ الألفاظ التّاليةَ بالاعتمادِ على أحدِ المُعْجَمات:

ـ يُبالي: ....

ـ هُراءٌ: ....

ـ الجَليل: ....

ـ المَأْزِق: ....

ـ اليَفاعة: ....

ـ المُتَداعي: ....

ـ غَذَّ: ....

ـ مَناصٌ: ....

ـ المطهّمة: ....

جـ ـ في اللّغةِ والنّحو:

١ ـ هاتِ أضدادَ الكلماتِ التّاليةِ مع ضبطِها بالشّكلِ:

قَسَتْ ≠ .... مُسْتَوردة ≠ .... يَمْنة ≠ ....

مُتَنَوّعة ≠ .... تكريم ≠ .... زاهية ≠ ....

ناصِع ≠ .... المُمْكن ≠ .... مُوحِش ≠ ....

٢ ـ هاتِ مرادفًا لكلٍّ ممّا يلي مع الضّبطِ بالشّكل:

مثالِب = ... تُجِلُّهُ = ... يَنِمُّ عن = ...

مَطْلِيًّا = ... الشّغَف = ... المُنْبَعِثة = ...

يَرْتَطِمُ = ... مَزْهُوٌّ = ... تَمتزِجُ = ...

توّاقٌ = ... أَحْجَمَت = ... زَمّليه = ...

٣ ـ هاتِ مؤنثَ كلٍّ ممّا يلي مع ضبطِهِ بالشّكل:

رَجُل ← . . . . أَسَدٌ ← . . . . أَحْمَرُ ← . . . .

أَطْول ← . . . . أَفْضَلُ ← . . . . جَمَلٌ ← . . . .

٤ ـ اجمعْ كلاًّ منَ الأسماءِ التّاليةِ مع الضّبطِ بالشّكل:

أُخْتٌ ← . . . . أَخٌ ← . . . . أُمٌّ ← . . . .

يدٌ ← . . . . قَناةٌ ← . . . . ذو ← . . . .

ذاتٌ ← . . . . شَفَةٌ ← . . . . العصا ← . . . .

أَحْمَقُ ← . . . . الخُطْوة ← . . . . سَلّةٌ ← . . . .

٥ ـ ثنِّ كلاًّ من الأسماءِ التّاليةِ معَ الضّبطِ بالشّكل:

هانِىء ← . . . . أَخٌ ← . . . . العَصا ← . . . .

دِفْءٌ ← . . . . فَتًى ← . . . . شادٍ ← . . . .

٦ ـ أكملِ العباراتِ التّاليةَ بالطّريقةِ الّتي أُكْمِلَتْ بها العبارةُ الأولى مَع الضّبطِ بالشّكل:

ـ الهولنديّ يَستمتعُ بغفوةِ صباحٍ حالمٍ. ← الهولنديّون يَستمتعونَ بغفوةِ صباحٍ حالمٍ.

ـ كانَ هنالك طفل يجثو. ← كان هنالك طفلان . . . . ← كان هنالك أطفال . . . .

ـ غطَّ مينهير في نومٍ عميق. ← . . . . أنا في نومٍ عميق.

ـ هاتان الفتاتان كانَتا صديقتَينِ. ← هؤلاءِ الفَتَياتُ . . . . صديقات.

٧ ـ أكملِ العباراتِ التّاليةَ بالطّريقةِ الّتي أُكمِلَتْ بها العبارةُ الأولى مع الضّبطِ بالشّكل:

ـ صاحَ الأولادُ بسُرورٍ، فهم صائِحونَ بسرور.

ـ تجمهَرَ بعضُ النّاسِ حوله، فهُمْ . . . . حولَه.

ـ بدا جاكوب شاحبًا، فهو . . . . الشحوب.

ـ أتى أحدُهُمْ بمشروبٍ، فهو . . . . بمشروب.

٨ ـ صلْ بينَ الكلماتِ ذاتِ الأصلِ الواحد:

تنامُ ●	● الفتى
الفتية ●	● نمَّ
نمّامٌ ●	● نائم

٩ ـ أعرب ما يلي:

ـ هُرِعَت غريتلُ إلى أخيها مُشْفِقةً.

ـ عندي كلُّ شيءٍ.

ـ كانَتْ سَفْرَةٌ رائعةٌ فوق المَركَبِ.

....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....

الفهرس



الزَّلاَّجاتُ الفِضِّيَّة

ماري م. دودج

دار العلم للملايين